تحت رماد الحرب العاصفة..!!؟
أسرار حرب العراق

خمسون شاهد عيان ثقة على أحداث الحرب العدوانية على العراق خلال ثلاثة وأربعين يوماً من ٢٠/٣ – ١/٥/٢٠٠٣م.

ذكريات ساخنة ورؤى لشاهد عيان على جريمة العصر
والأهوال التي شهدتها بغداد وما حولها أبان الغزو الأمريكي للعراق.

علاء الدين المدرس

دار الرقيم للنشر والتوزيع/ بغداد

١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣ م

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ١٧٠٠ لسنة ٢٠١١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمـــة

اليوم الاثنين ١٤ /٤ /٢٠٠٣ هو اليوم الذي آثرت أن أبدأ الكتابة فيه وأســـجــل بعض الذكريات المؤلمة عن أيام الغزو الأمريكي وحربه المدمرة لبلدي العراق تحت غطاء مزيّف يخلو من أي شرعية قانونية أو أخلاقية أو حضـــارية ... غطاء الحرية والديمقراطية وغطاء نزع أســلحة الدمار الشامل من النظام العراقي الذي كان يحكمه صدام منذ أكثر من ثلاثين عاماً حكماً فردياً في ظل الحزب الواحد الذي أوصـــل البلاد إلى ما وصـــلت إليه، بســـبب فقدان التعددية والمؤســـســـية والـــدســـتورية، ولكن ذلك لا يمكن أن يكون مبرراً كافياً ولا غطاءً شرعياً للغزو والتدمير الذي عشناه خلال الأسابيع الثلاثة الماضية ... والآن ونحن على أعتـــاب نهاية هذه الحرب التي أتوقعها غداً بعد أن ســـقطت آخر قلاع النظام البعثي (تكريت) اليوم الاثنين ٤/١٤ بأيدي التحالف الأمريكي البريطاني وبعد ستة أيام من سقوط نظام صدام يوم الأربعاء الماضـــي، ربما يكون الوقت الآن مناســـباً لتســـجيل بعض الذكريات والقناعات والتحليلات وآراء شـــهود العيان عما حدث ودار خلال الحرب لكي تكون شـــاهدة شهادة حية واعية وربما دقيقة عما رأينا نحن هنا في بغداد من أعمال عســـكرية عدوانية وقصف جوي وصـــاروخي شـــمل المدنيين والعسكريين دون تمييز، وتدميراً للبنية

التحتية والخدمات الأساسية للبلد مما يندى له جبين الإنسانية، كل ذلك لتحقيق الأهداف الأمريكية المعلنة في الاستحواذ على النفط والثروات العراقية ولكي تقر عين إسرائيل وتنام آمنة مطمئنة بعد تخريب أكبر قوة عربية وأعظم ثقافة مناوئة للمخطط الصـــهيوني المقبل للمنطقة، ولكي يفتح الأمريكان بوابة العولمة العســكرية والاقتصـــادية لإرهاب دول العالم كافة في الشرق والغرب.

ولعل في الاســـتراتيجية الإعلامية والحربية التي مارســـتها الولايات المتحـــدة الأمريكيـــة في إدارة هذه الحرب غير النظيفة ما هو أخطر وأعظم لإخفاء حقيقة التصدي والصمود العراقي البطل للعدوان بغض النظر عن الموقف من النظـــام الحاكم، وان ذلك يشـــمل كافة الفئات والطوائف العراقية، مما يجعل الكتابة عن هذا الموضـــوع في غاية الأهمية من النواحي الإعلامية والتوثيقية والتاريخية، لكي يعلم الرأي العـــام في العالم كذب ودجل هؤلاء المعتدين ويكشـــف منهجهم في السيطرة على مقدرات العالم وإرهابه حتى يكون المال والإعلام والقوة حكراً لهم ولأذنابهم.

لذلك آمل أن يكون لهذه المحاولة الأهمية الإعلامية الواضـــحة والأثر الطيب على الرأي العام العربي والعالمي، رغم أني سوف أعتمد فيها على الـــذاكرة وشـــهود العيان والمعاينة ليس إلا، دون الرجوع إلى المصادر المكتوبة والأجهزة الإعلامية والصحافة التي تجوب البلد بعد الإطـــاحة برموز الحكم الســـابق وحزبه الأوحد. فهي تجربة ميدانية

بـــالدرجة الأولى، وعليه ســـــتكون دقة المعلومات والأحداث التي يتم متـــابعتهـــا كبيرة من الناحية الميدانية والنقلية والتأكد من صـــحة وقوعها، مع احتمال ورود خطأ ما في توقيتات تلك الأحداث والمعارك بســـبب اعتمادها على الذاكرة القريبة وشهود العيان لمعظم المعارك التي دارت على الساحة العراقية، والله يشهد أنني أكتب هذه المذكرات الآن في ظروف سيئة وإنني أستخدم السراج النفطي (اللالة) لكتابتها بســـبـــب انقطاع التيار الكهربائي، وأتجول في كافة أنحاء بغداد وما حولها من المناطق التي تعرضـــت للقصف وحدثت فيها معارك كبيرة كالدورة والســـيدية والعامرية والمنصور والبلديات والتاجي والشعب والراشـــدية فضـــلاً عن الأعظمية ووسط بغداد، وتحدّثت مع عشرات شـــــهود العيان الثقات في هذه المناطق من المدنيين والعســـــكريين وغيرهم من أبناء الشعب العراقي المجاهد.

إن هذه المشـــاهد والأحداث التي تم تسجيلها وروايتها هي في الواقع رؤية الشارع العراقي لأحداث الحرب من خلال ما رواه شهود العيان الذين تم انتقاءهم من مختلف الفصائل والمناطق. وهي لذلك تعبر عما كان يجيش في نفوس العراقيين من مشاعر وأحزان وتحاليل وما كان يتنـــاقلـــه الناس من أحداث وقصـــــص في كافة المدن والثغور التي تعرضـــــت للعدوان، كما إنها تعبر عن انعكاس لا شـــــعوري عفوي لشـــخص عاش أيام الحرب بكل دقائقها وحاول أن يقدم صورة تمثل انطباعاته وقناعاته عن قوة أجنبية غاشمة كانت تحاول أن تحتل بلده

تحت أية ذريـــــــعة، وهي تمثل رؤى وقناعات من حوله ممن عاش معــه الحــدث، ومـــا ترك هذا الاحتلال في النفوس من آثار عميقة ومخلفات قاســية جاءت لتبدل ظلام الظلم والاستبداد بظلمات التبعية والاستعمار. ورغم أنني على يقين من أن هذا الكتاب الذي يعد الأول من نوعه مما نشـــر عن حرب العراق، ســـتتبعه كتب عديدة لمؤلفين آخرين تعالج هذا الموضوع من مختلف الزوايا وترفد المكتبة العربية بكل دقيقة من دقائق هذه الحرب الظالمة والعاصفة، فإنني في الوقت نفســـــه ســـــأكون ممتنـــاً من القارئ الكريم إذا ما زوّدنا بملاحظاته وتعقيباته ومعلوماته عما دار في هذه الحرب من أحداث تخدم الغرض الـــذي من أجله كتب هذا الكتاب، وفي مقدمة ذلك تدعيم الثقة بقدرات هذا الشعب العظيم والثبات أمام ظلم الاحتلال البغيض، وعودة الوعي ومراجعة الذات العراقية بما جرى من أخطاء وهفوات لتحري الصواب واستلهام العبرة والحكمة، وتخطي العقبات والأخطاء التي كان الجهل والاســـتبداد من أهم أســـبابها، ولذا فإننا ننتظر المزيد من الصـــور والأحداث التي يمكن إضافتها لهذا الجهد المتواضع لكي تأتي الطبعات التالية أكمل حالاً مما قدره الله سبحانه لنا في الطبعة الأولى، ومن الله التوفيق.

علاء الدين شمس الدين المدرس

١٢ ربيع الأول ١٤٢٤هـ

١٣/ ٥/ ٢٠٠٣م

تمهيد

لقد كان الأســـبوع الذي ســـبق الحرب أســـبوعا مزدحماً وكثيفاً بالأحداث والأعمال والنشاطات التي عاشها أهل العراق، فربما جاوز عدد الذين قرروا الهرب من جحيم الحرب خلال تلك الفترة أكثر من مليون شخص آثروا الخروج إلى سوريا وبعض الدول المجاورة مع أراجيف الرئيس الأمريكي بوش وتهديده ووعيده ووصول الأساطيل إلى الخليج، ودق طبول الحرب التي تزايــدت وتيرتهــا في ذلــك الأســـبوع الذي ســـبق الحرب، رغم أن التلويح بالحرب قد بدأ منذ الصـــيف الماضـــي ولم يطفأ غليانه وعطش القادة الأمريكان لتلك الحرب الموتورة وغير المشروعة إلا الغزو والعدوان، ورغم نجاح أمريكا في استصدار القرار رقم ١٤٤١ في مجلس الأمن واستئناف التفتيش الذي كان يصـــب قطعاً في اســـتراتيجية الجاســـوســـية الأمريكية، غير أن طغيان أمريكا وغطرســـتها وتأليهها لنفســـها ومنهجهـــا لم يكن يثنيه خســـارتها في الجولة الثانية من الحرب الدبلوماســـية حين لم تســـتطع أن تحصل على الأغلبية في مجلس الأمن لضرب العراق بعد انتهاء المدة المحددة للتفتيش في منتصف شـــباط الماضي، وعدم استطاعتها إثبات ما ادعته على لسان بوش وبلير من وجود أســـلحة الدمار الشامل في العراق، وكان المنطق

الأمريكي الجـــديـــد وغير القانوني الذي يدعو إلى أن يثبت المتهم براءتـــه، وأن يقدم العراق الأدلة على عدم وجود تلك الأســـلحة المزعومة. ثم اتخذ الطغيان الأمريكي قرار الحرب وإنذار صدام بأن يثبت براءته خلال ٤٨ ساعة، وهكذا بدأت الحرب بدون أي غطاء قانوني ولا اتفاق دولي أو حتى أوربي، فكانت فرنســـا قد تزعمت معارضـــة الحرب غير المشـــروعة على العراق تشـــاركها ألمانيا وروســـيـــا ومعظم الدول الأوربية الأخرى. وواكبت بداية الحرب ظهور قطبين في العالم، القطب الأمريكي البريطاني صــــاحب راية العولمـــة والنظام الدولي الجديد ومفهوم القطب الواحد وحكم العالم بـــالقوة الغاشـــمة وتهميش دور مجلس الأمن والمنظمة الدولية، وقطب أوربا القديمة (العريقة) المدافعة عن التعددية والشـــرعية واحترام القانون وســـيادة الدول، وضـــرورة العودة إلى المنظمات الدولية الشرعية وفي مقدمتها الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي لحل النـــــزاعات الدولية، والمدافعة عن المنهجية الحضارية التي تجعل من الشرعية والسلام وحقوق الإنسان في مقدمة اهتماماتها، ولقد كانت فرنســـا وألمانيا تستذكر صورة هتلر وطغيانه وترى فيه صـــورة أمريكا الحالية بقيادة بوش وحالة الانفراد بالقرار الدولي، فضـــلاً عن خشـــيتها من السيطرة الأمريكية على الخزين النفطي العـــالمي وتحكمها الفعلي في الاقتصـــاد العالمي. ورغم الموقف الأوربي الصـــلب ضد الحرب، قررت أمريكا أن تدخلها، يغريها في

ذلك قوتها الغاشــــمة وســـيلان لعابها على ما في العراق من ثروة هائلة، وتحالف بريطانيا وأســـبانيا واســـتراليا معها، وعدم مرونة الدبلوماســـية العراقية وشـــللها بســـبب الحكم الفردي الدكتاتوري، ورهان قوات التحالف على الوضـــع الطائفي والعرقي في العراق واســـتثمار ذلك الوضـــع في خلخلة الصف وحسم الحرب بسرعة لصـــالحهم، فضـــلا عن أثر الحصار الذي نخر البلاد خلال السنين العجاف التي تلت حرب بوش الأب، ضاربة بعرض الحائط انتهاكها الصـــارخ للقانون الدولي واحتقارها لدور المنظمة الدولية ومجلس الأمن، واســـتهانتها بمشـــاعر العرب والمســـلمين، واتهامهم –في الإعلام الأمريكي المتصـــهين– بأنهم ســـبب الإرهاب الدولي في العـــالم.. وهكذا بدأ التحالف الأمريكي البريطاني الحرب الغاشـــمة العدوانية، وبدأ الغزو البربري على العراق بعدما مهد الإعلام لتلك الكارثة الإنســـانية بكل الوسائل المتاحة واستخدام الحرب النفسية الإعلامية التي غطت العالم بأسره، وقد رفع الإعلام الأمريكي شعار (الصـــدمة والترويع) لهذه الحرب الكبرى لفتح باب السيطرة على العالم وفرض العولمة والنظام الدولي الجديد على العالم بالقوة بدءً بأفغانســـتان فالعراق ثم بقية دول آسيا وأفريقيا ثم أوربا كحصيلة نهائية لتداعيات هذه الستراتيجية الاستحواذية بزعامة أمريكا.

ومن المفيد أن أذكر أنه قد وقع في يدي كاسيت يحتوي على خطبة الشـــيخ يوسف القرضاوي ليوم الجمعة التي سبقت الحرب في ١٤

/٣ /٢٠٠٣، وكانت الخطبة مكرّسة لموضوع الحرب على العراق وكشـــف المخطط العــدواني الأمريكي الصــــهيوني وخلفيات ذلك المخطط والتداعيات الخطرة المتوقعة فيما إذا نشبت الحرب وسقط العراق في أيدي قوات التحالف. وقد قمت بنشــــر هذه الخطبة بين الناس خلال أيام الحرب الأولى لتحذيرهم من مخاطر الغزو الأمريكي الصهيوني، كما وقع في يدي مقال من الانترنيت موقع الجزيرة نت بعنوان (بوش.. طغيان الحماس الديني على البصــيرة الســياسية) بقلم الكــاتب الموريتاني (محمد مختار الشــــنقيطي) مع مقال آخر لكـــاتـــب أمريكي يـــدعى ليندن بعنوان (العمى الأخلاقي الأمريكي) والمقالان يتحدثان عن النفوذ الصهيوني في أمريكا وخطة الصهاينة في تهويد وصـــهينة المســـيحيين البروتستانت الأمريكان، واحتلال الشـــرق العربي لتدعيم الأمن الإسرائيلي، تمهيداً لظهور المسيح المنتظر بزعم هؤلاء الصـــهاينة والمتصهينين البروتستانت، ومن بين هؤلاء المؤمنين بهـــذه العقائد والأفكار الرئيس الأمريكي بوش وكثير من أقطاب الحكم والســياسة في أمريكا، وجاءت أحداث ١١ أيلول وتـــداعياتها واتهام المســـــلمين بالإرهاب لتعزز هذا المنطق والمنهج الأمريكي ســـواء إيماناً به أو تسخيراً له لصالح الأطماع الأمريكية في العالم العربي والإســـلامي. وقد حاولت نشـــر هذين المقالين أثناء الحرب لتدعيم الجبهة الداخلية وللتعبئة وتجســـيماً للخطر الماحق بكل صـــوره وتثبيتاً للمؤمنين، رغم قناعتي وقناعة

الكثير من الإســـلاميين أن الرايـــة المرفوعة أثناء الحرب لم تكن إسلامية، وأن صدام وحزبه لم يعطوا أي فرصة للإسلاميين للدفاع عن البلد ولم يثقوا بهم ولم يســـلّموا الســـلاح لهم حتى آخر لحظة لســـقوط النظام. ولكن واجب الدين والوطن يدعو إلى التصـــدي والوقوف بوجه الغزو والعدوان بكافة الســـبل ومنها إيصال الكلمة الصادقة والوعي والتثبيت، وقد كان شعارنا في ذلك قوله تعالى: ﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا، سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾ [1] فإذا كان النظام الحاكم لم يسمح بالجهاد وحمل السلاح، فعلى الأقل يمكن أن نقوم بجهاد الكلمة وتثبيت المقاتلين للجهاد والصـــمود بوجه الغزو والاحتلال.

بدء الحرب على العراق

في فجر يوم الخميس وفي الساعة الخامسة بعد انتهاء فترة الإنذار القصـــيرة للعراق، بدأت الحرب الظالمة، وســـمعنا صـــوت صفارة الإنذار بعد دوي القصـــف الجوي والصاروخي على بغداد. واستمر القصف طوال اليوم والأيام التي تلت، وبدأ البث التلفزيوني العراقي الخاص بتغطية الحرب في الســـاعة الثامنة صباحاً، وسمعنا خطاب

---

[1] سورة الأنفال/ ١٢.

الرئيس صدام الحماسي والقصير في الساعة الثامنة والنصف، وبدأ الإعلام العراقي يشـد من أزر الشـعب بالأغاني والأناشيد الوطنية الحماسية، ثم صدر البيان الأول معلناً بدء الهجوم البري الأمريكي على أم قصـر، تلك المدينة الصغيرة الباسلة التي تقع على الحدود العراقية الكويتية، ثم بدأت القوات الأمريكية والبريطانية تتدفق على جنوب العراق مستهدفة الفاو والبصرة من الحدود الكويتية..

وبعد يومين من القتال الشـرس في أم قصـر والفاو والذي أبدى خلالـه الجيش العراقي مقاومة باسـلة وتحدياً بطولياً لهذا الغزو الهمجي المتـذرع بحجج غير صـحيحة ولا صـادقة. لقد وجد الأمريكان والإنكليز أن بوابات العراق الصغيرة في أم قصر والفاو عصـية على جيوشـهم المدججة بالسـلاح الحديث والتكنولوجيا المتطورة، وقد كانوا يظنون أن جنوب العراق سيفتح ذراعه وأبوابه لهم بالورود والزهور، فلم يجدوا غير الرصاص والصدور المؤمنة الصـابرة التي واجهت قوات الاحتلال وصواريخهم، لذلك قرروا أن يتركوا الفاو وأم قصـر ويذهبوا بمرتزقتهم إلى البصـرة العريقة مدينة التاريخ والحضارة والنفط، فلم يجدوا فيها غير الصورة التي رأوها في القرى الصغيرة. فتصدى أبناء البصرة وعشائرها وجندها وفدائيوها وكبدوا العدو أفدح الخسـائر. وفي مسـاء السبت تحدث البيان العسـكري العراقي عن تقدم الجيش البريطاني نحو البصرة الفيحاء، وفي صـباح الأحد ٢٣ /٣ /٢٠٠٣ حدثت معارك طاحنة

بين قوات التحالف والعراقيين، أبدى الشعب العراقي وجيشه بسالة نادرة وكبدوا المعتدين خسـائر جسـيمة في الدروع والطائرات والجنود من القوات الخاصة (المرتزقة) والقوات الإنكليزية، أما في بغـداد وبقية المدن في عمق أرض العراق فان القصـف الجوي والصـاروخي لم يتوقف ولم يفتر عنها، وكانت بغداد الحبيبة تئن تحت وطأة أكثر من ١٦٠٠ ضـربة صـاروخية وجوية يومياً، كان جزءٌ غير يسـير منها على المدنيين والمؤسسات الخدمية والدوائر والمسـتشـفيات والمنازل والشوارع والمتاجر، وفي معظم أحياء وضـواحي العاصـمة في الدورة والعامرية وسـومر والأعظمية والشعب وغيرها، مسببة استشهاد المئات من المواطنين من النساء والأطفال والشـيوخ، فضـلاً عن قصف مواقع الحرس الجمهوري وقيادات الجيش والفدائيين حول بغداد.

معركة أم قصر

لقد وقعت معركة أم قصر في اليوم الأول للحرب، حيث بدأت قوات التحـالف هجومهـا البري على العراق من حدود الكويت المقابلة لمدينة أم قصر، ورغم صغر هذه القرية والميناء فإن العراقيين لم يتركوها لقمة سـائغة للغزاة بل إن الجيش المتموضـع فيها قاتل وصـمد صمود الأبطال وكبد العدو خسائر كبيرة أضطر إلى التعتيم عليها بعدما شعروا أنها قد تجاوزت ما توقعوه بسبب تلك البطولة

النادرة التي لمسوها في إصرار وثبات العراقيين على المقاومة ورد العدوان. وإن أم قصـــر استطاعت الصمود أمام الغزو سبعة عشر يوماً كاملاً، وإن الفرقة ١١ والفرقة ٥١ اللتين كانتا من أضـــعف الفرق في الجيش العراقي استطاعت أن تقهر قوات التحالف وتوقف هجومهم، وقد كان الأمر أكثر صـــدمة لهم في البصـــرة والناصرية والنجف وفي وقفتهم الشجاعة في الأيام التالية.

أيام العاصفة الرملية

لقـــد كـــانت من اســــتراتيجيات الدفاع العراقي في بغداد ومراكز المحافظات إشـــعال النفط الأســـود في أســـوار بغداد وحول المدن الكبيرة للتـــأثير على أجهزة الرادار والمراقبـــة والطيران لقوات التحالف، وأني لا أستطيع تقدير مدى فائدة هذه الخطة من الناحية العســـكرية، لأني لا أمتلك الخبرة والقدرة على تقييم هذا الإجراء، ولكن يبدو لنا إنه أربك العدو في إصـــابته لأهدافه وفي مناوراته وحساباته على الأرض خلال الأسبوع الأول والثاني للحرب، لاسيما وأنه اقتنع أن يبقي قواته في الصـــحراء شـــأن الجبناء، ولا يدخل المدن العراقية بعدما اصطدم بالروح البطولية للعراقيين في الدفاع عن مدنهم، وخصوصاً بعد أن شهدت الناصرية هي الأخرى مقاومة باســـلة ومعارك ضـــارية لطرد الغزاة كبدت الأعداء خسائر كبيرة، وكان الإعلام الأمريكي حريصاً على عدم إعلانها أو الاكتفاء بإعلان

أقل من عشـــرها خشية الرأي العام العالمي والأمريكي والبريطاني بشكل خاص بسبب اتساع صوت المعارضة للحرب والعدوان داخل أمريكا، فضــــلاً عن أوربا والعالم. ومما زاد الطين بلّة، إن التأييد الإلهي كـــان واضــــحاً في تثبيت المقاتلين ورفع معنويات الجيش والشعب العراقي، حيث كان جند الله بالمرصاد لتدمير معدات العدو وإنزال الوهن والرعب في صفوفهم بعد العاصفة الرملية والأعاصير الشديدة التي دامت ثلاثة أيام بلياليها، لتتيح للعراقيين مناقلة قواتهم وتعرضهم لقوات الغزو المنتشرة غرب الفرات في الصحراء الممتدة على الحدود العراقية الســـعودية. لقد كان لهذا التأييد الإلهي الأثر الكبير على صمود العراقيين ميدانياً ومعنوياً، في حين كان ذلك فأل شـــؤم وروح انتقام طاردت قوات التحالف وآلياتهم وأجهزتهم، مما جعل ميزان المعارك لصـــالح الصمود العراقي رغم عدم التكافؤ في القوى والإمكانيات بين الطرفين.

معارك البصرة والناصرية والنجف والرمادي

وهكــذا كانت أيام الأحد والاثنين والثلاثاء وبالاً على المعتدين حتى أفزعت بوش وبلير ورامســـفيلد وغيرهم من المتآمرين على هذا البلد العريق، وقد كانت معارك الأنبار في الرطبة والقائم ثم النجف وكربلاء وفشــل المحتلين في تحقيق أهدافهم الشريرة في الدخول إلى المدن عاملاً مضـــافاً في الارتباك الحاد في صـــفوف التحالف المعادي لاســـيما قادتهم، مما أضـــطر بوش وبلير أن يلتقوا ثلاث مرات خلال الأيـــام العشـــرة الأولى للحرب، ثم تلاحقــت الهزائم والخســـائر الكبيرة في قواتهم حتى يوم السبت ٢٩ /٣، لاسيما في معركتي النـــاصـــريـــة والنجف البطوليتين، حيـــث أنه في معارك الناصـــرية وحدها تم إســـقاط عشـــرين طائرة سمتية نوع أباشي وطائرة سمتية نوع كوبرا، وتدمير مئات الدبابات والناقلات وتكبيد العدو خسائر كبيرة في الأرواح، واستمر الموقف العسكري الميداني لصالح العراق، وكان الإعلام العراقي ذا الإمكانيات الفقيرة المحدودة أصدق وأدق من الإعلام الأمريكي الذي يعتمد على الخيال والتوقع والزيف والكذب وإخفاء الحقيقة عن العالم بشـــكل أساسي انتظاراً للحظة تنفيذ خطة (الصدمة والترويع) التي كان يحلم بالوصول إليها في لحظة الانهيار العراقي الســـريع المتوقع والحرب الخاطفة التي خطط لهـــا بوش وأعوانه لتكون خلال مدة لا تزيد على ثلاثة أيام،

وحين لم يحصـــل مـــا توقعهُ الأمريكان، بدأ التخبط والتناقض في التصـــريحات، ومع نهاية الأســـبوع الثاني بدأ الحديث عن تغيير الخطط المعدة سلفاً، وظهر على السطح ما لا يتمنى هؤلاء الحلفاء، نتيجة الهزائم الحقيقية التي حصــدها الغزاة في البصرة والناصرية والســـماوة والنجف وكربلاء والأنبار وقضاء البعاج في الموصل، وفشـــل الإنزالات العديدة في الرطبة واليوســـفية وكربلاء وتقهقر التحالف المعادي وتكبدها خســـائر غير متوقعة بلغت ألاف القتلى والأسرى ومئات الدبابات والدروع والناقلات، مع تزايد ملحوظ في العمل الفدائي الاســـتشهادي في النجف والناصرية والأنبار، لاسيما بعد عملية الشـــهيد علي النعمان في النجف، ولم يســـتطع الإعلام العراقي المتواضـــع أن يوصـــل كل تلك الحقائق إلى العالم بســـبب قدرته الضـــعيفة وسوء الإدارة الإعلامية ومحاصرة القوات الغازية للقنوات الإعلاميـــة المســـتقلـــة والمحـــايدة، تمهيداً لغدر العراق وإجهاض تصديه البطولي الأسطوري، رغم استبداد النظام الذي لم يســـمح لكثير من المخلصـــين بالمشاركة الفاعلة في القتال، ورغم تردد البعض من النـــاس بحجة أن الراية البعثية لا تمثلهم، إلا أن الجيش والفـــدائيين العراقيين والعرب وأهل المدن والعشـــائر في جنوب العراق وغربه وشـــماله، كل تلك الفصـــائل قاتلت وجاهدت خلال الأسبوعين الأولين كصف واحد وقوة واحدة مؤثرة وسخية، وقد حدثني الكثير من شـــهود العيان من الجيش والشعب أن مئات

الأســرى الأمريكان في الناصرية والبصرة والأنبار قد تم عرضهم على الناس وحجزهم في أماكن مخصــصة تمهيداً لاستلام الأوامر بشأنهم، وقد ذكر أحد الثقّات أنه في إنزال غرب الأنبار في الأسبوع الأول بين الرطبة والقائم تم قتل ٥٠ أمريكي وأسر ٧٥ جندي آخر تم حجزهم عند قبيلة البو نمر ولم يســلموهم إلى الدولة بســبب إشــكال قديم بينهم وبين السلطة، مما دعا بصدام إلى استرضائهم وإكرامهم على عملهم الباســل، وكذا الأمر في الناصــرية حيث تم أسر عدد كبير من الجنود الأمريكان بعد معركة الناصرية الباسلة، وقد حدثني شاهد عيان آخر عن مئات القتلى الأمريكان التي كانت رؤوســهم تلقى أمام صدام في بغداد، ممن كانوا حصيلة العمليات الفدائية في مختلف مواقع القتال، وبعد حادثة عرض الفيلم العراقي للأســرى الأمريكان والضــجة الكبيرة التي افتعلوها حول انتهاك العراق لاتفاقيات جنيف للأســرى، أصــبح عرض الأســرى في التلفزيون والتصــريح بعددهم من الأمور الحســاســة في الإعلام العراقي، ويقال أن صــدام أمر بقتل من يقع في الأسر من الأعداء للتخلص منهم ومن الإشكال الإعلامي والاتهامات الأمريكية.

أما العمليات الإستشهادية فقد كانت كثيرة ولكن الإعلام العراقي كان أضعف من أن يغطيها كلها، عدا تلك التي أعترف بها العدو والتي كانت قرب المدن الكبيرة، وأشــهرها العملية الإستشهادية الكبرى التي قام بها الشــهيد البطل علي جعفر موســى النعمان في مدينة

النجف، والتي قتـــل فيها ١١ جندياً أمريكياً ودمّر دبابتين وناقلتي جنود في أول عملية فدائية بطولية يوم الســـبت ٢٩/ ٣ حيث قاد سيارة مفخخة وفجّرها في وسط آليات العدو وجنوده، وقد أعترف الأمريكـــان بهذه العملية وذكرتها وســـائل الإعلام العالمي، وكذلك عملية إسقاط الفلاح العراقي علي لفتة للطائرة السمتية في كربلاء باســـتخدام سلاحه الخفيف (بندقية برنو) يوم الاثنين ٣/٣١ والتي حاول الإعلام الأمريكي التشـــكيك بها بعد احتلال بغداد في محاولة لتســـويق الرواية الأمريكية للحرب مســـتبعدين أي دور بطولي للعراق، والعمليـــة الفـــدائيـــة البطولية النســـوية التي قامت بها الشـــهيدتان نوشـــة الشمري ووداد الدليمي في مدينة الرمادي يوم الجمعة ٤/٤ في مطلع الأسبوع الثالث للحرب والتي أدت إلى مقتل وجرح عدد من أفراد قوات التحالف.

وقد روى لي أحد شـــهود العيان الثقات من أهالي البصـــرة بعض الأحداث التي حدثت في البصرة أثناء الحرب وبعد سقوط النظام في بغداد فقال: أنه في اليوم الثاني من الهجوم دنس البريطانيون أرض الزبير بن العوام والحسن البصري (مدينة الزبير) وواجهوا ما لم يتوقعوه من الناس الذين عشقوا الحق، فواجهوا هذا التدنيس بكل صلابة بما امتلكوا من أسلحة متواضعة وأحرقوا بعض آليات العدو واختطفوا بعض الجنود من المعتـــدين وذبحوا الآخرين ممـــا أدخل الرعب في قلوب المستعمرين.

ومن الروايات التي تعد من صـــفحات الصمود البطولي ما فعله آل الراشد في الفاو إذ وقفوا يدافعون عن المدينة دفاع أصحاب الحق عن حقهم وقد شهد لهم الناس بذلك.

لقد دارت معركة رائدة بين قوات المشـــاة البحرية في (أم قصـــر) وبين القوات البريطانية ابتدأها البريطانيون بالقصـــف الشـــديد بـــالطـــائرات والمدفعية فلم تتحرك القوات العراقية أي حركة وظن البريطانيون أنه لم يبق من قوات المشـــاة والبحرية العراقية أحد فتقدموا عليهم، فخرجوا لهم من المواضـــع ودارت معركة ضارية بين الطرفين حقق فيهـــا العراقيون نصـــراً على الأعداء وكبدوهم خسائر فادحة وتراجع الباقون إلى الخلف.

أما في مدينة البصرة فقد ربض البريطانيون على مشارف المدينة، وبالتحديد عند جســـر الزبير ولم يستطيعوا التقدم إلى المدينة لمدة أسبوعين ووقف بوجههم الفدائيون العراقيون والعرب، وقد تفاهم بعض أعضـــــاء الحزب الحـــاكم الكبـــار من بعض العملاء مع البريطانيين حول تسليم البصرة دون قتال، ولم يتحقق ذلك ألا بعد جهد جهيد، بفضل وجود الأبطال الغيارى من الوطنيين والفدائيين، ومن صـــور البطولة لهؤلاء الفدائيين العرب أنه كان أحدهم قد شدّ رجله حتى لا يستطيع التراجع، وكان يضرب العدو وقد أحرق دبابة وناقلة ثم أســـتشهد، وقد كان ذلك في (معركة حمدان) هكذا سميت عنـــد النـــاس لأنها في منطقة حمدان، ويروي لنا الثقات إن امرأة

خائنة أخذت ترمي على الفدائيين بســـبب ولائها للأجنبي وادعائها بغضـــها لصدام ثم قُتلت بنار الفدائيين. وقد أصاب الناس في هذه المنطقة الهلع بسبب القصف العشوائي عليهم.

وعنـــد دخول القوات المحتلـــة للمدينة كان بعض الرعاع الذين لا يفهمون معنى الحق وأهلـــه والبـــاطـــل وأهله، أخذوا يصـــفقون ويضحكون مع جنود الاحتلال، ولكن أغلبية الناس ثبتوا ولم يخشوا الباطل فمنهم من لزم بيته وأخذ يبكي ومنهم من لم يصـــدق ما هو فيه، ويذكر إن جماعة من جامع الفاروق في الجنينة أخذوا يبكون في المســـجد فاســـتحيا الناس من اســـتقبالهم للمعتدين وتراجعوا ودخلوا بيوتهم.

بعد الاحتلال جاءت المأســـاة وحلت الفوضى ونزل الانفلات الأمني بســـاحة الناس وغياب القانون بغياب الأخلاق والدين، وبدأ السلب والنهب لدوائر الدولة، أقول لدوائر الدولة فلم تذكر حالة ســـرقة للأفراد إلا مـــا نـــدر، والســـرقات كانت مقتصـــرة على الدوائر والمؤسسات والمخازن، ومن بين هذا التسيب والانفلات كانت هناك أخلاق وقيم بصـــيغة فريدة، فقد وقف أهل الســـيمر قرب المحكمة القديمة في البصـــرة على الشـــارع وأخذوا يقذفون الســـرّاق و (الحرامية) بالحجارة فكســـروا سياراتهم وأمتعتهم وتركوا الأمتعة وهربوا.

ثم هـــبّ العلماء إلى حث الناس إلى تذكر الله وردّ المظالم وإرجاع الممتلكات إلى أماكنها فأرجعوها إلى المســـاجد والحسينيات. ثم بدأ دور المخلصين الغيارى في إعادة بناء البلد والمؤسسات.

فشل خطة الحرب الخاطفة والصدمة والترويع الأولى

مع مطلع شـــــهر نيســـــان تم إجراء تغييرات في الخطة الأمريكية ميدانياً وإعلامياً، وذلك إن الخطة الإعلامية التي كانت تعتمد أساساً على إخفـــاء الحقـــائق وتقليل عدد الخســـــائر إلى أدنى حد ممكن أصبحت غير قابلة للتنفيذ بسبب الخسائر الجسيمة في معارك المدن والعمليات الفدائية وبسبب وجود الإعلاميين المحايدين ونقلهم جزءً غير قليـــل من الحقائق التي لا تروق للأمريكان ولا تنســــجم مع خطتهم الخبيثـــة، فقررت قيـــادة التحالف تهميش دور وزير الدفاع الأمريكي رامســـفيلد وإسناد قيادة الجيش لرئيس الأركان، وتشديد عملية تقييد الإعلام الأوربي والعربي المحايد والتي وصـــــلت إلى درجـــة ضـــــرب مركز التجمع الإعلامي في بغـــداد وقتل عدد من الصحفيين، منهم مراسل في قناة الجزيرة هو طارق أيوب، والتآمر على الإعلام العراقي وطعنـــه من الخلف وإظهـــاره بمظهر الإعلام الكاذب المخادع بأســـــاليب تكتيكية هوليودية آخرها قصـــــة معركة المطار التي خُدع فيها وزير الإعلام العراقي محمد سعيد الصحاف أيما خديعة سنأتي عليها لاحقاً، وضرب وسائل الإعلام العراقي في القلب بقصفها بشكل هستيري ومتكرر، والاتصال بالقادة الميدانيين والأمراء العراقيين في الجيش والحرس الجمهوري وتحذيرهم من خطورة مواجهـــة القوات الغـــازية وتهديدهم بمحاكمتهم كمجرمي

حرب، وإدخال عناصـــر من قادة المعارضـــة إلى المدن العراقية الجنوبية التي اســـتعصـــى عليهم دخولها لتفتيت الجبهة الداخلية والتشـــكيـــك في قدرة النظام والجيش على الصـــمود، وتجييش الجواسيس والعملاء ونشرهم في المرافق والأماكن المهمة في البلد وتجهيزهم بأجهزة ومعدات متخصـــصـــة لتحديد الأهداف الحيوية لغرض قصـــفها وذلك للإســـراع في الإجهاز على أركان النظام، ويتوقع البعض أن عدد الجواســـيس الذين أدخلتهم قوات التحالف وصـــل إلى ٥٠٠٠ جاسوس وعميل، واستنفار القوة الاستخباراتية للتحضـــير للضـــربة القاصمة.. ثم توجيه الضربة القاضية للنظام العراقي في المطار والمنصـــور والقصـــر الجمهوري في الأسبوع الثـــالث خلال أيام الأحد والاثنين والثلاثاء منه . هكذا كانت الخطة بعد أن يأس العدو من الوقوف أمام بســـالة التصدي العراقي على الأرض، لاســـيمـــا وأن الخطة الأمريكية كانت - كعادة أي غازي جبـــان-تقتضـــي عدم الدخول في المدن والاصـــطدام مع الجيش والحرس والفدائيين، فكان هؤلاء الغزاة يجوبون الصـــحراء خوفاً من الموت على أيدي العراقيين، متدرعين بحصـــونهم ومدرعاتهم ومعتمدين على التفوق الجوي الســـاحق وقوتهم الصاروخية، وتلك الصـــفة يؤكدها القرآن الكريم حين يخبر المؤمنين عن قتال هؤلاء المعتدين وأمثالهم فيقول: ﴿لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من

وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾ (سورة الحشر/١٤) وقد زاد من ورطتهم في حصنهم الصحراوي تلك العاصفة الرملية التي أعمت أبصارهم وأجهزتهم فضلاً عن قلوبهم. كما أن من الحقائق الأخرى التي تبين الزيف الإعلامي الأمريكي هي استخدام أكثر من ١٥٠ ألف جندي من القوات الخاصة (المرتزقة) وهذا العدد يزيد على نصف الجيش الأمريكي الذي جيء به لغزو العراق، وهؤلاء حسب ما صرح الأمريكان أنفسهم إنهم مرتزقة بحق، فهم ممن لم يحصل على الجنسية الأمريكية أو من أوباشهم وسرّاقهم ومجرميهم، ممن يرغبون الالتحاق في هذه القوات الخاصة بأجور مجزية وعالية جداً مقابل شرطين هي أن لا يُعلن عن مقتلهم من قبل الحكومة الأمريكية، وأن لا يحق لأهليهم المطالبة بمعرفة مصيرهم بعد مقتلهم، كما ويمتاز الجيش الأمريكي المنتشر في الخليج بميزة أخرى، هي تخصيص فرق عديدة وكبيرة للإخلاء والإنقاذ، فلا تنتهي معركة أو هزيمة لجنودهم ودروعهم حتى يسارع هؤلاء بواسطة فرق الإنقاذ لشفط وسحب كل ما على الأرض من القتلى والجرحى ومعدات ودروع وطائرات دون الحاجة إلى الإعلان عن ذلك. بتلك الخطة الخفية استطاعوا أن يصوروا للعالم أنهم لم يخسروا أكثر من مائة وخمسين قتيلاً مع عدد من الجرحى

والأســـرى، مما يصـــور عقلية الكاوبوي والخيال الذي يحكمهم ويمنيهم بالسيطرة على العالم، بحجة إنهم لا يقهرون وإن ما يقتل منهم هو شيء لا يذكر مقارنة مع قتلى خصومهم والأهداف الكبيرة التي يريدون تحقيقها، مما يخدع الرأي العام الأمريكي بأســـطورة القوة الأمريكيـــة ومنهجهم الـــذي لا يعتمد إلا على الزيف والخدع الإعلامية الكبرى، مما ســـيؤدي قطعاً إلى مأساة مروعة في أمريكا والعالم خلال الحقبة القادمة، إذا لم يتم ردع هذا الأسلوب المخادع، والذي لا يحتفظ بأي قيمة شريفة أو مبدأ حضاري إنساني سوى تقديس القوة التي تمثل الحق في العقل الأمريكي، وخداع البشـــرية من خلال الهيمنة على الإعلام العالمي ومقدرات العالم.

استعدادات صدام لإطالة أمد الحرب

لقد كانت هناك مؤشـــرات عديدة تشـــير إلى تماسك النظام العراقي وقوتـــه خلال الأســـبوعين الأولين للحرب، بل قد يتعدى ذلك حتى صباح يوم الاثنين ٢٠٠٣/٤/٧ حيث شاهدتُ بنفسي أوراق موقعة من البنك المركزي العراقي للمكافآت التي قرر صـــدام صرفها لمن يقتل أحد الغزاة أو يســـقط طائرة أو صـــاروخ أو يدمر دبابة أو مدرعة أو ناقلة جنود، وكان تاريخ التوقيع للبعض منها يوم الاثنين ٤/٧، هذا فضـــلاً عن انســـيابية الأعمال الخدمية لاسيما الكهرباء والماء، واستمرار عمل محطات تعبئة البنزين بشكل اعتيادي دون

ازدحام أو إرباك، حيث قمت أنا لآخر مرة بملء سـيارتي بالبنزين يوم الاثنين ٧ /٤ أيضـاً عصـراً من محطة المنصور قرب السوق المركزي، وكذلك اسـتمرار المداخن المصـطنعة الناتجة من حرق النفط الأسـود حول بغداد لما بعد الاثنين، واستمرار إعداد البيانات العسـكرية واللقاءات الصحفية لوزير الإعلام ووزير التجارة حتى صـباح الثلاثاء، وقد شـهد الأسبوع الثاني للحرب إرسال رسائل وبيانات ومكافآت عديدة من قبل صـدام وكانت تقرأ من قبل وزير الإعلام، منها رسـالة مفتوحة من صدام إلى الزعيم الكردي جلال الطلبـاني يحـذره فيها من مغبّة التمادي في متابعة قوات الاحتلال والمشاركة معهم في غزو الموصل وكركوك ما دام صدام في الحكم ويمثل السلطة المركزية للعراق، ورسالة جوابية ذات طابع معنوي وتطميني لنسـاء العراق موجهة إلى بنت أخيه ثريا برزان، وكانت الرسـالة تكنيها بأم أحلام للتأكيد على الدور الأبوي لصدام لنساء وبنـات العراق، وكانت تؤكد على عدم السـماح لقوات التحالف بـدخول بغداد واختراق أسـوارها إلا على أجسـادنا، كانت تلك الرسالتين قد أذيعت يومي الاثنين والثلاثاء ٣/٣١ و ٤/١. غير أن الموقف قد أنقلب رأساً على عقب بعد أسبوع واحد من إذاعة هذه الرسـائل، ودخل المحتلون بغداد بشـكل مفاجئ وغير متوقع. أما صـدام فقد كان ظهوره في بغداد يوم الأحد ٤/٦ عصراً في مناطق عديدة كالمنصـور والأعظمية وشـارع حيفا، حيث نقل التلفزيون

العراقي تلــك الجولة –وكان قد ألقى الخطاب الثاني له يوم الاثنين ٣/٢٤ في الأســبوع الأول للحرب– ولم يظهر صدام حسين بعدها في بغــداد إلا في الأيام الأخيرة من حكمه يومي الأربعاء والخميس ولكن ليس كرئيس دولة وإنما كأحد الأشقياء وزعيم عصابة ومعه مجموعة من الســـيارات وعدد من الفدائيين، ربما لا يزيد عددهم على ١٠٠ شـــخصـــاً، حيث ظهر في جامع الإمام أبي حنيفة ظهراً بحدود الساعة الواحدة يوم الأربعاء ٩ /٤، وقد رآه عدد من أهالي الأعظمية منهم بعض أصــدقائي، وأخص منهم الأخ أبو دعاء الذي قام بمصـــافحته ومعانقته، وهو يقول له أنتم أهل الأعظمية أبطال، كما التقيت بأكثر من عشرة أشخاص آخرين ثقة ممن رأوه وتكلموا معه في ذلك اليوم، والجدير بالذكر أن صـــدام لم يقدم أي شـــيء متميّز وحقيقي للأعظمية ســوى بنائه القصــر الرئاســي الحصين والــذي جعله الأمريكان أحد مقراتهم بعد احتلال بغداد، ولم يزرها طوال حكمه، لكنه آثر أن تكون آخر أيامه في الأعظمية، وقد شوهد فجر الخميس في أحد مســاجد الأعظمية الصغيرة، يقال إنه مسجد (بشر الحافي) قرب جامع أبي حنيفة، ثم اختفى أثره. وكان وجوده في الأعظمية مع الفدائيين ســبباً مهماً لقصـــف الأعظمية وتدمير مأذنة جامع الإمام أبي حنيفة ﵁ واســتشــهاد عشــرات المدنيين والشــباب والاستشهاديين وتخريب عدد كبير من المباني والمتاجر والســيارات.. وقد ســمعنا دون أن نتمكن من ترجيح الأخبار التي

تحدثت عن اشتراك صدام في القتال مع الفدائيين الذين رافقوه في عـدة معارك في المنصـور والعطيفية والأعظمية يومي الخميس والجمعة، فضـلاً عن معارك سـابقة في اليرموك وساحة النسور والقصر الجمهوري، ولقد سمعتُ بنفسي أصوات الرصاص لمعركة العطيفية دون أن أستطيع تأكيد وجود صدام مع المقاتلين.

أسـتطيع أن أقرر- كما أكد بعض شـهود عيان في المنصور- أن مفتاح بغداد واللحظة التي سـقط فيها صـدام وانهار النظام وبدأت الفوضـى هي اللحظة أو السـاعة التي تلت قصـف المكان الذي خصص لاجتماع صدام مع القيادة في المنصور خلف مطعم الساعة في شـارع ١٤ رمضان يوم الثلاثاء ٨/٤ ظهراً، وقد رأيت بنفسي يوم الأحد ١٣/ ٤ ذلك المكان بعد قصفه وتدميره، فبعد ذلك الحدث الحاسـم والفاصـل في تاريخ العراق خرج صدام من بين أنقاض البيت الذي تهدم كلياً نتيجة القصـف الشـديد والخاطف الذي تم بإشـارة من أحد الجواسـيس والمتخاذلين من قادة الجيش، خرج صـدام ينفض التراب عن بزّته وهو لا يدري إنه بذلك كان ينفض يده من الحكم والسـيطرة على مقاليد الأمور، حيث تحول فجأة إلى فرد عـادي لا يختلف عن أي عراقي فاقد الحول والقوة، وتلك هي قدرة الله وقدره النافذ أن يحول السلطان إلى صعلوك والصعلوك إلى سـلطان بفعل كن فيكون، ويتحول الملك إلى عبد ذليل في رمشـة عين..يؤتي الملك من يشاء وينـزع الملك ممن يشاء ويعز من

يشـــاء ويذل من يشـــاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير، فهل ســـيعتبر النـــاس والحكـــام والأمراء من تلك الأحداث والتغيرات الخطيرة التي قـــدرها الله على العراق وعلى حاكم العراق الذي لم يكن يتصور تلك النهاية الحزينة.

وقبل الحديث عن معركة بغداد نستطيع أن نقول، أن صدام قد رحل عن عالمنا كما بدأ حياته.. رجلاً شـــقياً شجاعاً مستبداً عنيداً شديد العنـــاد.. تاركاً ملكه العظيم تعبث به أيادي الســـرّاق والمجرمين والوصـــوليين، وبناءه العظيم أن ينهار تحت مرأى ومســـمع من أعدائه والطامعين في عراقه الذي أبى أن يتقاسمه مع أحد، إلا أن يتركـــه ترابـــاً بأيدي خصـــومه، بعدما غدروا به عند دخوله جنة الكويت بوحي وتشجيع منهم، يوم كانوا حفظة ملكه الأخفياء والذين جاؤوا به إلى الســـلطة وأغروه بحرب جارته الكبرى إيران.. ومن الطريف أن أذكر أنني اليوم الثلاثـــاء ٤/١٥ طفـــت معظم أحيـــاء ومناطق بغداد في الكرخ والرصافة، فلم أجد صورة أو تمثالاً لصدام إلا وقد دمّر أو شوّه، في حين أن تمثال سلفه أحمد حسن البكر في المنصور لا يزال محتفظاً بقوامه وزهوه ماداً يده إلى أهل بغداد في محنتهم العصيبة.

لقد كان صدام يعتقد أن نظامه سيصمد أمام العدوان الأمريكي لمدة لا تقل عن ســـتة أشـــهر، حيث إنه قام بتوزيع الحصـــة التموينية للشـــعب لمدة ســـبعة أشـــهر ولغاية الشهر العاشر من هذا العام (

٢٠٠٣م)، كمـــا أنه أمر بحفر آلاف الآبار في بغداد والمحافظات، وحث الناس على حفر الآبار في بيوتهم، ففي الأعظمية مثلاً حفرت مئات الآبار، وكانت على نوعين كبيرة وصـــغيرة، على عمق يزيد على ١٥ مترا بالنســـبة للآبار الصغيرة وأكثر من ٢٥ مترا للآبار الكبيرة، حيث تم حفر آبار كبيرة في الحديقة المقابلة لجامع الإمام أبي حنيفة، وكذلك في حديقة (حجي بصرة) في حي السفينة، وبئر ثالث كبير مقابل جامع الرحمن الرحيم على كورنيش السفينة وقرب مســـتشـــفى النعمان، وشـــمل هذا الإجراء كافة الوزارات والدوائر المهمة والمســـتشفيات والمقرات الحزبية والأمنية ومراكز الشرطة والأحياء الشـــعبية فضـــلا عن المنازل، وهكذا في باقي المحافظات والمدن العراقية الأخرى، مما يدل يقينا على أن صدام دخل المعركة ويحدوه الأمل بالثبات والمقاومة لأشـــهر طويلة بل لســـنين، حيث صـــرّح على لســـان أحد وزرائه إنه مستعد لحرب طويلة تصل إلى ١٣ ســـنة، حتى يتغير الموقف الســـياسي في العالم العربي وأوربا والعالم وينحاز لصالحه، ولقد كانت هذه الآمال مجرد أحلام وخيالات لأن أتباعه وحزبه معظمهم من النفعيين والوصـــوليين الذين أترفوا بالأموال والمناصب والتسلّط على رقاب الناس، أما الفئات الوطنية التي كان من الممكن أن تصـــمد وتقاوم وتحارب فلم يكن يثق بها ولم يجهّزها بالسلاح المناسب، بل حتى السلاح الخفيف لم يسلّم إلى الناس حتى أواخر أيامه لخوفه من انقلابهم عليه، عدا العشـــائر

وسكان المدن - الذين استطاعوا التحايل على النظام والحصول على السلاح المحدود التأثير- والجيش والحرس والفدائيين الذين تفانوا في الدفاع عن الوطن بدافع الحس الوطني وبحكم عملهم العسكري والفدائي، فجاء القصف الشديد وسياسة الترويع والحرب النفسية الإعلامية والتخاذل وخيانات بعض القادة في بغداد -بحجة التهلكة والاختلاف مع صدام- ليفل من عزمهم، لاسيما في الأسبوع الثالث بعد استخدام الأسلحة المحرمة، وقد حدثني أحد الثقات أنه علم من مصادر موثوقة أن ثلث الاحتياطي الستراتيجي للصواريخ الأمريكية قد نفد خلال الأسبوع الأول من الحرب، وهو الاحتياطي الذي تراكم خلال الحرب الباردة وما بعدها في حلف الناتو والأساطيل الأمريكية لمواجهة حلف وأرشو وروسيا ويوغسلافيا بعد تفكك الاتحاد السوفيتي في مطلع التسعينات.

معارك الدورة والسيدية والزعفرانية

حدثني أحد الثقات من ضباط الجيش أنه كان في مقر لأحد قيادات الجيش في جنوب بغداد يوم الجمعة ٤/ ٤، وإنه شاهد إنزالا أمريكيا على منطقة الرستمية، فذهب مع رفاقه إلى أحد المسؤولين في القيادة ليبلغه بالإنزال وإنهم رأوا رتلا مكونا من أكثر من ثلاثين مدرعة في الرستمية متجهة إلى الزعفرانية جنوب معسكر الرشيد، ثم تم إبلاغ الجهة المسؤولة عن متابعة الإنزالات وكان مقرها في

الكريعات في شمال بغداد، فأجابهم اللواء المسؤول عن الإنزالات بأن شاغلوهم بقوة موقعية، فقالوا له: ليس لدينا قوة للمشاغلة لأننا موقع قيادة ولا نمتلك غير الأسلحة الخفيفة وبضع قاذفات الدروع لحماية الموقع، فأجابهم: سيتم إرسال قوة من الحرس الجمهوري إلى المكان، وفي اليوم التالي فوجئ هذا الضابط ورفاقه بأن إنزالا ثانيا قد وقع في نفس المكان بعد ٢٤ ساعة دون أن تصل أية قوة إلى هذا المكان، حيث عمل الأمريكان عقدة محصنة في المكان وبدأوا يغذون قواتهم في الزعفرانية ومعسكر الرشيد. إن هذه الحادثة تصور حالة الفوضى والارتباك التي كان الجيش يمرّ بها أثناء الإنزالات العسكرية على ضواحي بغداد في الأسبوع الثالث من الحرب، لاسيما من النواحي الإدارية والخدمية والتباطؤ في سرعة الاستجابة لتداعيات المعارك حول بغداد. ولقد سبق ذلك بأيام قليلة بدء الإنزالات والهجمات حول بغداد ومحاصرتها في منتصف الأسبوع الثاني، والذي مهد له تصريح وزير الدفاع العراقي الغريب في حينه، حينما قال إن الأمريكان سيصلون إلى بغداد بعد خمسة إلى عشرة أيام، فبعد معركة اليوسفية بيومين التي التقى بها الحرس الجمهوري مع قوات التحالف، وقد تكبد الجانبان خسائر كبيرة وتمكن الحرس من تطهير المكان من قوات الانزال، حدث إنزال كبير في منطقة السيدية قرب جسر البياع السريع، وقد حدثت معركة كبرى بين الطرفين يومي الأربعاء والخميس ٢-٣/٤

في هذه المنطقة على طريق الحلة- بغداد، وقد شـــاهدت بنفســـي الـــدمار الكبير والآليات والدبابات العراقية المحترقة، أما الأمريكية فقد انتشـــلتها فرق الإنقاذ بعد المعركة، وقد تكبد الأعداء خســـائر كبيرة كما أوضـــح البيان العراقي ليوم الخميس ٣/٤ وكادت قوات التحالف أن تصل إلى جامعة بغداد في الجادرية في جانب الرصافة المقابل للســـيدية لو قدر لهم أن يعبروا جســـر الســـيدية، ولكن العراقيين استطاعوا أن يلحقوا بقوات التحالف خسائر جسيمة وأن يطردوهم من الســـيدية على طريق الحلة، ويروي شاهد عيان أن قوة من الأمريكان اســـتولت على الجســـر من جهة الكرخ نهار الأربعاء وكانت تطلق النار على أي عراقي ترصـــده حتى إذا كان طفلا للمســـافة الممتدة من مفرق الدورة والمصـــفى جنوبا وحتى جسر البياع شمالا وذلك لارهاب الناس، ولا تزال آثار تلك المعركة والدروع والســـيارات المحترقة والمباني المدمرة إلى اليوم ١٥/ ٤ - حيث رأيتها بنفســـي- ممتدة من مصـــافي الدورة حتى السيدية وجســـر البياع وجامع أم الطبول، ويقال أن صدام وقصي قد ظهرا لأول مرة وهم يشـــاركون الجيش والحرس والفـــدائيين في هـــذه المعركة، ثم ظهر صدام ثانية في معركة اليرموك عند ساحة النسور يوم الجمعة ٤/٤ث ثم المنصـــور فالأعظمية قبل أن يختفي نهائيا يوم الجمعة ٤/١١.

وحدثني أحد شهود العيان في السيدية أنه شهد معركة السيدية يوم الثلاثاء ٤/١ وقد شاهد بعينه صدام حسين مع ابنه قصي يقاتل في هذه المعركة، وقد شــاهده في ســيارة جيب عســكرية فيها مدفع رشاش مقاوم للطائرات، وكان صدام يحمل على كتفه قاذفة دروع، وقد سمع من الآخرين أنه أصاب دبابة أمريكية وأحرقها في ميدان المعركة وكان معه عدد كبير من الفدائيين وقوات الحرس والجيش، ومن الجدير بالذكر أن العراقيين لاسيما الفدائيين وقوات الدروع قد لاحظوا أن الدبابة الأمريكية مصنوعة بطريقة تقاوم قاذفات الدروع RBG7، وذلك لكونها مجهزة بمجال مغناطيسي يقوم بحرف القذيفة عن الدبابة وانفجارها بعيداً عنها، ولا يمكن إصــابتها إلا بنوع من صواريخ (نوع تاو) أو قاذفات هاون كان الجيش العراقي قد حصل عليها من إيران والكويت خلال الحربين الماضــيتين حيث تم أخذها كغنــائم حرب، ولكن الوقــت اللازم والخطوات المطلوبة لتجهيزها للإطلاق طويلــة، كمــا أنهــا تحتاج إلى خبرة فنية عالية، ونتيجة الممــارســة وجد المقاتلون العراقيون أن تغليف القذيفة من نوع RBG7 بشــريط بلاســتيك يجعلها تصــيب الهدف وتعطل التأثير المغناطيسي على القذائف، وفعلاً تم العمل وفق هذا الأسلوب وكان ذو أثر فعــال في المعارك التالية وقد جرب ذلك بشــكل كبير في معركة السيدية ومعركة المطار ومعركة الأعظمية وأدى إلى تدمير مئــات الــدبابات والدروع والناقلات الأمريكية. وقد حدثت معركة

السيدية بعد معركة تطهير طريق المحمودية- اليوسفية يوم الاثنين ١/ ٤، ويضـــيف شاهد العيان أنه بعد معركة اليوسفية قامت قوات التحـــالف بتنفيـــذ ســـبعة إنزالات في طريق الحلة (المحمودية- اليوســـفية) من القوات المحمولة قوام كل إنزال بحدود ثلاثة آلاف جندي، وإن هذه الإنزالات مهدت لمعارك الدورة- الســـيدية والتي ســـبقـــت إنزال المطـــار ومعارك أبي غريب والعامرية في مطلع الأســـبوع الثالث بعد الخميس ٣/ ٤ ، والتي توّجت بمعركة المطار الحاســـمة يوم الأحد ٦/ ٤ ومعركة القصـــر الجمهوري والمنصور يوم الثلاثاء ٨/ ٤ وأخيراً سقوط صدام يوم الأربعاء ٩/ ٤.

من المؤســـف حقا أن نقول أن أمريكا راهنت على الداخل وتأييد العراقيين لهـــا وراهن صـــدام على الخارج والرأي العام العالمي، وكلاهما قد فشـــل، وقال شـــعب العراق كلمته في النهاية وصاغها بالدم خلال أسابيع الصمود الثلاثة، فكبد الغزاة خسائر غير متوقعة اضـــطرته إلى اســـتخدام وسائل غير نظيفة ولا شريفة لكي يحسم الحرب لصالحه.

كما حدثني أحد شهود العيان أنه شهد معركة التويثة جنوب معسكر الرشيد والطاقة الذرية، حيث كان الهرج والمرج في بغداد قد جاوز الحد في يوم الثلاثاء ٨/ ٤ وكان الوضع مضطرباً والجيش محتاراً بين أوامر الاســـتسلام وروح المقاومة والتصدي للدفاع عن بغداد، وبينما كانت قطعات من الحرس الجمهوري في طريقها للانسحاب،

انبرى عقيد ركن من الحرس في منطقة التويثة في طريق المدائن- معسكر الرشيد، وقال للضباط والجنود من وحدته، إنني قررت أن أبقى هنا لأدافع عن بغداد ولن أنسحب حتى أموت هنا أو يكتب الله لنا أمراً، ونزع رتبته من كتفيه، وقال اليوم ليس يوم رتب ولكنه يوم جهاد وتصدي للمعتدين، فمن يريد أن يبقى معي فمرحباً به، وإلا فالبيت ليس ببعيد ونحن على أطراف بغداد، فبقي معه أكثر من ١٥٠ فدائياً من وحدته التي كانت منسحبة من معارك العزيزية والمدائن. وبقوا ينتظرون ويترقبون رتلاً أمريكياً مكوناً من ستين دبابة كان قادما من طريق المدائن خلف السدة المحاذية للطاقة الذرية، فهجموا عليهم دفعة واحدة كأنها هبة رجل واحد، واستطاعوا أن يدمروا ٤٥ دبابة من الرتل ويقتلوا مئات الجنود الأمريكان ولم يستشهد منهم سوى ٢٥ شهيدا، وهكذا انتهت معركة التويثة بنصر مؤزر لجيش العراق ورجاله المخلصين.

معركة المطار

حدثني أحد شهود العيان من ضباط الحرس الجمهوري في منطقة الفرات الأوسط (المسيب- الحلة- الكوت) إنه لحد منتصف الأسبوع الثالث للحرب كانت معنويات الجيش والحرس والشعب عالية جداً ولم يستطع الأمريكان أن يحرزوا أي نصر يمكن أن يفتخروا به، وإن خسائرهم كانت كبيرة وغير اعتيادية من وجهة نظرهم، وقد

طردوا خارج المدن العراقية في الصـــحراء وبين الرمال، وإن أم قصـــر اســتطاعت الصمود أمام قوات التحالف أكثر من أسبوعين، وإن الفرقتين ١١ و ٥١ من الجيش اســـتطـــاعت أن تقهر قوات التحالف وتصد هجماتهم العديدة، وكذا الأمر في البصرة والناصرية والسماوة والنجف وباقي المدن العراقية، غير أن الأمر قد تغير في منتصـــف الأســـبوع الثالث، حين تم نقل وحدتهم وانســـحابها من المسيب إلى بغداد/الدورة بعد معارك كربلاء والحلة، حيث انسحبوا إلى بغداد لإعادة تنظيم وحدتهم، وقد اضطروا إلى العودة إلى بغداد بملابس مدنية واســتخدام ســيارات مدنية لنقل عدتهم وأسلحتهم، واشـــتركوا في معركة الدورة- السيدية، وحدثت معركة كبيرة في تلـــك المنطقة بين قوات الحرس والجيش وبين القوات الأمريكية، استشهد منهم ٣٠٠ ثلاث مائة جندي وأكثر من ٧٠٠٠ سبعة آلاف مدني، وتم تكبيد العدو خسائر فادحة وصلت إلى أكثر من ألفي قتيل وثلاثة آلاف جريح مع عدد من الدبابات والآليات والناقلات وصلت إلى أكثر من مـــائة، كما قدرها هذا الضـــابط ومن معه. ثم حدثت معركـــة المطـــار في اليوم التالي بعد إنزال المطار يوم الخميس ثم عودتهم بعد طردهم يوم السبت، وارتباك الوضع العسكري العراقي في بغـــداد يوم الأحـــد، ويذكر هذا الرجل البطل أن الأمريكان كانوا مرعوبين من الحرس والفـــدائيين والجيش العراقي، ولكن التخاذل والخيانات الكثيرة لبعض آمري الوحدات لاســـيما الحرس وقيادة

الأركان والاختراقات التجسسية أدت إلى إبادة عدة فرق وألوية في حزام بغداد منها اللواء المدرع العاشر الذي كان أقوى لواء مكلف بالدفاع عن بغداد، حيث دمّر أثناء تنقله في القصـــف الجوي. لقد تـــآمر عدد من الآمرين على بغداد وبيعها للمحتلين، وقد أدى هذا الارتباك والاضطراب، ومن ثم الاختراق والتخاذل وعمل صفقات مع القوات المحتلة، إن قام صدام بإعدام أكثر من ٣٠ ضابطاً كبيرا من قـــادة الحرس الجمهوري وأركان الجيش والآمرين وبعض قيادات الجيش، وقد ذكرت لي أســـماء عديدة ولكن الأمانة العلمية تقتضي عدم ذكر أياً منها خشية اتهام الأبرياء بهذه التهمة الخطيرة المخلّة بـــالشـــرف والانتمـــاء للبلد. إن إنزال المطار بدأ الأربعاء وتعزز الخميس من عقدة أبي غريب وقد حســـمت المعركة السبت لصالح العراق ثم زاره الصـــحاف بصـــحبة الصحفيين الأحد صباحا، وبدأ الإنزال الثاني الأحد بعد الضربة النووية التكتيكية حيث استقر وضع المطار لصالح قوات التحالف وظهر الصحاف كاذبا بحركة إعلامية سريعة وبأسلوب الكاوبوي وهوليود بعد الضربة النووية المحدودة على منطقة تواجد قوات الحرس في المطار.

وحدثني أحد شـــهود العيان من ضـــباط الحرس الجمهوري الذين شاركوا في معركة المطار، وهو يصف الجثث المحترقة والمتفحمة التي شـــاهـــدها بعينه، فقال رأيت أحد الجنود المتفحمين كلياً في الطابق الثالث لإحدى بنايات المطار، والغريب أننا لم نجد أي كســـر

في الزجاج أو هدم في البناية، وهو يتساءل مستغرباً كيف تفحم هذا الجندي دون أن تتضرر البناية؟ كما وجد شهيداً آخر قد احترق كل جسـمه ولم يبقَ منه سـوى الهيكل العظمي، ولم يعرف أين ذهب لحمه المحترق وكيف فصل عن العظام. ويقول أنه شاهد شهيداً آخر متفحماً وحين مسـك يده فُصـلت عن جسمه مباشرة وسقطت بيده وعلى الأرض، وشـهد مشاهد أخرى كثيرة لكنه اكتفى بتلك الأمثلة ليقول، أن هناك سـلاحاً مجهولاً قد اسـتخدم لإبادة كل من كان في المطار في تلك السـاعة، ولابد أن يكون ذلك السلاح جديداً ومحرماً دوليـاً لأن الأمريكان قد منعوا الصـحفيين والإعلاميين من دخول المطار إلا أماكن صغيرة محددة لتصوير احتلال المطار يوم الاثنين ٧/ ٤ ثم أصـبح الحظر على المطار كلياً بعد قصف فندق مريديان ومركز قناة الجزيرة صباح الثلاثاء ٨/٤ ولغاية ١٨/ ٤.

معركة بغداد والقتال البطولي لشعب العراق

مع مطلع الأسـبوع الثالث للحرب التي ادعى المخططون لها إنها سـتكون حرباً خاطفة ونظيفة خالية من أي أثر من آثار الأسـلحة المحرمـة، رغم أنهم بدؤوها بطريقة غير شـرعية ولا قانونية، وسنرى مدى النظافة فيها ونحن نتحدث عن الأحداث التالية الأليمة، في يوم الأربعاء ٢/٤ أو قبله بيوم ابتدأت أولى مراحل معركة بغداد الحاسمة بعد أن استطاع الغزاة عبور الفرات باتجاه العمارة والكوت

عن طريق الناصـــرية والبصـــرة، وباتجاه الحلة عن طريق النجف وكربلاء، ونشـــبت معارك طاحنة على مشـــارف الحلة والمســـيب والكوت والهندية، والتي كبدت قوات التحالف خســـائر جســـيمة أخرى، فضـــلاً عن الخســـائر الكبرى التي كبدتها عمليات الفدائيين والعشـــائر العربية والجيش في الصـــحراء الغربية وعلى أطراف المدن، والتي لم يستطع أحد أن يتصورها أو ينقل مشاهدها إلا عدد من شهود العيان والأخبار المتناثرة هنا وهناك بسبب بطش الإعلام الأمريكي وهيمنته على الساحة، إن الارتباك والتضعضع الذي آلت إليه قطعات الجيش العراقي والحرس الجمهوري في جنوب ووسط العراق وتحـــديـــداً حول أســـوار بغداد الاعتبارية في أبي غريب واليوســـفية والمحمودية والصويرة والعزيزية والمدائن والنهروان والتاجي والراشدية، بسبب القصف الجوي الشديد والمستمر والذي دام أكثر من أسبوعين حتى اللحظة التي بدأت قوات التحالف بإدخال رموز المعارضة العراقية وأتباعهم في البصرة والناصرية والنجف كأحمد ألجلبي ونزار الخزرجي وعبد المجيد الخوئي، ثم في سامراء وفيق الســـامرائي جعـــل موازين الحرب قد اختلفت وبدأ الإعياء والارتباك يدب في الجانب العراقي بسبب ما ذكر أعلاه وبسبب عدم تكـــافؤ ميزان القوى بين القوة العظمى الغـــازية ومجاميع الجهاد والتصدي العراقي، غير أن الحقيقة التي لا يمكن لأحد إنكارها هي إن وحدة الصـــف والروح العالية والصـــمود البطولي الذي أبداه

العراقيون ســـنة وشـــيعة، جيشاً وشعباً، لاسيما في جنوب وغرب العراق، قل نظيره ولم تكن بحســـبان قوات التحالف، ففي البصرة والناصـــرية قاتل السنة والشيعة جنباً إلى جنب- وكذا في الفرات الأوســـط- هؤلاء الطـــامعين بروح لم نســـمع عنها إلا في ثورة العشـــرين في مطلع القرن الماضي ضد الغزو والاحتلال الإنكليزي بعد الحرب العالمية الأولى.

كما قاتلت عشـــائر الدليم والجبور والعشـــائر التي ائتلفت معها في الأنبار والموصل ببسالة رائعة كبدت العدو خسائر كبيرة اضطر إلى إخفائها بكل الســـبل والوسائل التي يمتلكها عن طريق فرق الإنقاذ المتطورة والســـمتيات المجهزة بكل معدات الإنقاذ والإخلاء، وعن طريق الخداع الإعلامي والكذب المتكرر والتصريحات المتناقضة بين قادتهم، كما قاتل الجيش والحرس والفدائيون بتراص وشـــجاعة قل نظيرها، كما ســـمعنا عن الفرقة ٥١ الشجاعة في الفاو التي أشاع الغزاة -كذبا- أنها اســـتســـلمت لهم، واللواء المدرع ٤٥ والفرقة المدرعة السادسة وألوية الحرس الجمهوري في البصرة والناصرية والنجف، غير أن العدو كان مصمماً على احتلال البلد تحت مختلف الحجج وبكـــل الوســـائل والقدرات التي تمتلكها هذه الدول الكبرى المتحالفة ضـــد بلدنا الأعزل المقهور، ولقد صـــرح أحد المسؤولين الأمريكان أنهم مصـــرون على احتلال العراق حتى لو فقدوا ٦٥% من قوتهم المتواجـــدة على أرض العراق أي ثلثي القوة التي جاؤوا

بهـــا من وراء البحار، وفعلاً فقد تكبد هؤلاء المحتلون من القوات الخاصـــــة وقوات البحرية والقوة البريطانية ما يزيد على ٢٠ ألف قتيل وأكثر من ٣٠ ألف جريح، وعدد كبير من الأسرى الذين ربما قتل معظمهم بعد أن أصـــبح ســـقوط صـــدام وشيكا ومحتّما، وهذه الحصيلة هي الصورة الحقيقية للصمود العراقي أمام المحتلين مهما حـــاول العدو وإعلامه طمس تلك الحقائق وأخفوها عن شـــــعوبهم المخدوعة.

لقـــد تمكن هؤلاء البغـــاة من العراق بحربهم النفســـية الإعلامية وقـــدرتهم على إســـكات الإعلام العراقي وقنواته البســـيطة، فقد اســـتطاعت قوات التحالف في مطلع الأسبوع الثالث أن تدفع بثلاثة أرتـــال بـــاتجاه جنوب غرب بغداد، الأول عن طريق كربلاء والحلة باتجاه المحمودية- اليوســـفية، والثاني عن طريق الفلوجة- بغداد باتجاه أبي غريب، والثالث عن طريق الكوت- الصـــويرة- بغداد باتجاه المدائن- السيبة. ثم قامت بإنزالات عديدة جنوب غرب مدينة بغـــداد في اليوســـفيـــة وأبي غريـــب والـــدورة/ الســـيـــديـــة والزعفرانية/معسكر الرشيد في أيام الأربعاء والخميس والجمعة ٢-٤/٤ من الأسبوع الثالث للحرب، ثم قامت بعدة إنزالات أخرى سبقت إنزال ومعركـــة المطار، في النهروان والرســـتمية والعبيدي على طريق بعقوبة- بغداد القديم، مع إنزالات متفرقة أخرى صغيرة في مواقع عديدة من بغداد، فضـــلا عن الأثر العنيف للقصـــف الجوي

المســـتمر على قوات الحرس الجمهوري حول بغداد.لقد كانت خطة قوات التحالف لتدمير قوات الحرس المؤهلة لصـــد أي هجوم على بغداد أن تضطرها للخروج من مواقعها الحصينة ليسهل اصطيادها بالطائرات والصـــواريخ فكان ذلك هو الهدف الرئيســـي من كثرة الإنزالات حول بغداد، وكانت تريد من هذه القوات التي كانت بحدود ثلاثـــة فيـــالق التحرك من مواقعها للاشـــتباك مع العدو في مواقع الإنزال العديدة لتعريضهم للقصف العنيف والإبادة بعد القضاء على الإنزال، كما سيؤدي ذلك إلى إرباك القطعات بسبب كثرة الإنزالات، وفي يوم الســبت ٥/ ٤ كان إنزال المطار قد توسع وتحصن، حيث تمكن الأمريكان من عمل عقدة محصـــنة في أبي غريب واختراق المطار من خلالها، وهنا حدثت معركة ضـــارية بين ألوية الحرس الجمهوري والفـــدائيين من جهـــة وبين قوات الإنزال، وتم حســـم المعركة فعلاً خلال يومين لصالح العراق وطرد الأمريكان من المطار بعد تكبيدهم أكثر من ســـبعمائة قتيل وأكثر من مائة أسير مع مئات الجرحى الذين تم إخلاؤهم من قبل فرق الإنقاذ الأمريكية فضلا عن مئـــات الآليـــات والـــدبابات والناقلات. ومع بدء إنزال المطار يوم الخميس ٤/٣ انقطع التيار الكهربائي في بغداد دون أن نعلم ســـبب ذلك، وسبق ذلك الحدث بيومين هجوم عنيف وشرس على منظومة الاتصالات في السنك والمأمون والأعظمية، وقبل الحديث عما جرى من قضايا وانتهاكات مروعة في يوم الأحد، نؤكد قول شهود عيان

عن معاودة قصـــف الأحياء الســـكنية والمواطنين العزّل في معظم أحياء بغداد كالدورة والمنصـــور والحرية والشـــعلة والزعفرانية والأعظميـــة وغيرهـــا من الأحيـــاء، كان بعضـــها بقنابل الانفلاق العنقودية التي يحرّم استخدامها ضد المدنيين والأحياء السكنية، كل ذلك للتمهيد لدخول المعركة الحاسمة في بغداد.

لقد كانت ستراتيجية قوات التحالف في قصف محطات توليد الطاقة الكهربائية تعتمد مبدأ إيقاف وشل هذه المحطات دون تدميرها، فقد كانت طائرات قوات التحالف ترمي على هذه المحطات بكرات خاصة تحتوي على خيوط كاربونية، وحين تســـقط هذه الخيوط الكاربونية على الشبكة تؤدي إلى توقف اضطراري للشبكة shut down فتتوقف المحطة عن العمل، ولا يمكن إعادة تشـــغيلها، لأنه في حالة إعادة التشـــغيل تقوم الطائرات بقصفها وتدميرها، وهذا ما حدث لمحطات التوليد والتوزيع الكبيرة في البصـــرة والناصرية في الأسبوع الأول للحرب، ومحطـــات التوليـــد الكبيرة حول بغداد يوم الخميس ٤/٣ مساءً بعد الإنزال الأول على المطار، حيث قطع التيار الكهربائي عن مدينة بغداد، ثم عاد بشـــكل متقطع يومي الجمعة والســـبت ليتوقف نهائياً منذ يوم الأحد ٤/٦ حتى يوم الســـبت ٤/٢٦ حيث تم إعادته جزئيـــا في بغداد بعد تراجع حالة الانفلات الأمني وأعمال الســـلب والنهـــب وعودة جزء من الموظفين إلى دوائرهم لاســـيما الدوائر الخدمية ومنها الكهرباء والماء.

كيف حسمت معركة بغداد

في لحظات التداعي والانهيار يصمد من يصمد ويضعف من يضعف، وفي تلك الساعات التي أعلن وزير الإعلام الصحاف طرد الأمريكان من المطار وذهب بالصحفيين والمراسلين إلى موقع المعركة صباح الأحد ٦/٤، صدق الجميع خبر اندحار القوات الأمريكية في معركة المطار، لكن الذي حدث قبل وبعد هذه الســـاعة أمر يجعل الحليم حيران ويشـــيب له رؤوس الشرفاء، فقد حدثني أحد أفراد الحرس الجمهوري بأن الاضطراب الذي حصل منذ ليلة السبت حتى الثلاثاء وهي الأيام العصيبة التي سبقت سقوط النظام وفقدان سيطرة صدام على مقـــاليد الجيش والحرس وكافة مفاتيح البلد الأخرى، وتحول صـــدام بعدها إلى زعيم عصـــابة يتجول في بغداد بين المنصـــور والأعظمية والكاظمية والعطيفية ثم يختبأ كأحد صـــعاليك بغداد أيام الشـــطار والعيارين في أزقة الأعظمية الضـــيقة ثم يختفي بعدها نهائياً. لقد حدثني هذا الضـــابط أنه منذ السبت والأيام التي تلت تم الاتصـــــال بمعظم قواد الحرس الجمهوري وآمري الوحـــدات على الهاتف الشخصي –علماً بأن الاتصالات كانت مقطوعة بسبب قصف معظم بـــدالات بغداد – وأبلغوهم بكلام عربي وربما بلهجة عراقية، إننـــا قوات التحالف وســـــندخل بغداد خلال الأيام القادمة، فإذا لم تستطع أن تكون معنا، فإياك أن تحارب أو تأمر جندك بالقتال لأنك

في هذه الحالة ستعتبر مجرم حرب، وأضاف بأن آمرِهم حين أبلغهم بذلك قال لهم بأن بقية الآمرين قد تلقوا مكالمات مشـــابهة، ويمكن إضــــافة عوامل أخرى إلى عوامل الحســـم التي جيرها الأمريكان لخــدمة أهدافهم، منها كما قلنا أن المعارضــــة التي دخلت المدن الجنوبية اســتطاعت أن تحدث ثغرة في وحدة الصف الوطني وأن تولد بعض البلبلة والاضـــطراب في مســـألة موقف العراقي، هل سيكون لمناصرة النظام أم لمحاربة الغزاة، مع ما أحدثه القصف في مواضــــع الحرس وتجمعـــاتـــه، حيث كانت الجراح التي أحدثتها الصـــواريخ والطائرات عميقة والخسائر فادحة، ووصلت في بعض المواقع إلى أكثر من ٧٠%، علاوة على الأثر المـــدمر للتفوق الجوي أو بالأحرى انعدامه في الجهة المقابلة والضــــعف والإنهاك والتدمير الذي أصاب قطاعات الدفاع الجوي والصاروخي المستهدفة والمحـــددة ســــلفـــاً كأهداف خطرة لابد من تدميرها. إن هذا الجو الرهيب الواســـع الاضـــطراب قد ولد اضـــطراباً وضعفاً في أوساط المدنيين في بغداد، وقد كان القصـــف الوحشي عليهم يزيدهم هلعا واضطرابا وهم يرون الشهداء من الأطفال والنساء في البيوت التي تهدمت، لاســـيما ما حدث في راغبة خاتون والشـــعب والعامرية والدورة والجهاد والسيدية والبلديات والأعظمية والمأمون ومناطق أخرى كثيرة، وقد رأيت بنفسي آثار القصف الوحشي على البيوت السكنية والمواقع المدنية والخدمية في معظم هذه الأحياء في بغداد

كالبدالات والأســواق المركزية في المنصور وكرادة مريم والشعب وسوق المستنصرية وغيرها عدا المواقع التي لم أتمكن من زيارتها والإحاطة بها. كما تم قصف وزارة الإعلام وقنوات البث التلفزيوني والإذاعي في بداية الأسبوع الثاني، واستطاعت الدولة أن تجد بدائل للبث التلفزيوني والإذاعي ولكن بقدرات فنية ضـــعيفة، وكان البث التلفزيوني الفضـــائي العراقي قد تم قصفه مبكراً في الأسبوع الأول للحرب، واســـتطاع العراق إصـــلاحه، لكنه قصـــف هذه المرة في الأســـبوع الثاني مع وزارة الإعلام ومبنى الإذاعة والتلفزيون في الصـــالحية لكي يتم إسكاته نهائياً، وكنت قد شاهدت مبنى المحطة الفضائية في الأعظمية بعد قصفها مباشرة وقد تحولت إلى ركام من الأنقاض، ثم تكرر قصف بدالة الأعظمية أربع مرات (إلى أن تحولت إلى ركام أيضـــا مع البنايات المحيطة بها) حتى يوم الاثنين ٤/٧ وهو اليوم الحاسم في معركة بغداد. كما رأيت المواقع المدنية التي قصفت في راغبة خاتون وسومر والشعب والتي راح ضحيتها مئات الشـــهداء والجرحى من النساء والأطفال والشيوخ، وقد تم تغطيتها من قبل القنوات الفضـــائية الأوربية والعربية والصحفيين الأجانب ولقد رأيت إحدى الصـــحفيات الفرنســـيات وهي تبكي حين جاءت لتصـــور الشـــقق والمنازل التي تدمرت واحترقت بســـبب قصفها بصـــاروخ أمريكي في حي الشـــعب وهي ترى أمام عينها أشـــلاء الأطفال والنســـاء وترى الجرحى وكانوا بالعشـــرات وترى النيران

تأكل المباني والسـيارات التي كانت تسير في الشارع المؤدي إلى طريق بعقوبة بغداد ولم تتحمل هذه الصـحفية وحشـية أصـحاب الحضـارة ودعاة الحرية وهم يدمرون كل شيء حضاري وإنساني في العراق ويقتلون المدنيين الغافلين باسم تحريرهم وتوفير السلام لهم، لقد كان بكاؤها مفرطا حتى سـمعت صراخها ونحيبها، إن كل ذلـك أدى إلى انـدفاع عدد كبير من المواطنين إلى الهرب خارج بغداد، بشـكل جماعي مرعب، لاسيما إذا ما علمنا أن معظم طرق بغداد –المحافظات قد أغلقت كطريق الرمادي وطريق الحلة وطريق الكوت وطريق بعقوبـة القـديم، ولم يبق إلا طريقـان هما طريق الموصـل وطريق بعقوبة الجديد، في شـمال وشرق بغداد. فهرع الناس الذين لم يخرجوا في الأيام السـابقة للهروب الجماعي مع عوائلهم من بغداد صـوب ديالى وسامراء. ولقد حدثني ذلك الرجل من قوات الحرس أننا كنا نسمع بتلك التطورات السريعة، والجنود والضـباط يتهامسـون فيما بينهم بضرورة الهرب والنجاة قبل أن تغلق كافة الطرق، لاسـيما وأن معظم هؤلاء العسكريين كانوا من أبناء الموصل والرمادي وديالى. فإذا ما تم محاصرة بغداد وأغلقت الطرق فإننا سنموت حتماً بعيداً عن أهلينا. هذه كلها كانت أراجيف وإرهاصات الحرب النفسية الإعلامية التي تم ضخها وتسليطها على هذا الشـعب الصامد وجيشه المغوار، ولكن هذه الأمور لن تحسم المعركة التي يريدها الأعداء، فماذا يفعلون وهم يمتلكون كل أنواع

الأسلحة من السلاح الخفيف والمدفع والدبابة والطيارة حتى أسلحة التـدمير الشـــامل كالنووي والبايولوجي والكيمياوي، وهم الذين خدعوا العالم وكذبوا عليه بأنهم جاءوا يبحثون عنه في بغداد، وإن كان وُجدْ، فهم الذين أعطوه لصــدام ودمروه في ســنين الحصار الأولى عن طريق لجان التفتيش، ولكن يبدو أنهم يتصـــرفون معنا كما يقول الله تعالى: ﴿إن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة﴾ لا عهد ولا ذمة ولا قانون ولا محرمات..وهكذا كان الأمر، فقد تركوا الصحاف يخرج من المطار مع الصحفيين والإعلاميين، ثم وسوس لهم الشــيطان أن يضـــربوا قوات الحرس الجمهوري التي دخلت المطار وطردت الغزاة بســلاح مجهول من أسلحة التدمير الشامل، وقد روى بعض شهود العيان ممن رأوا الجثث المحترقة المتفحمة أنه ســلاح نووي تكتيكي إشــعاعي محدود التأثير سريع الاختفاء، وهناك من يقول إنه قنبلة مايكروويف لمساحة ٢٠٠×٢٠٠ م تجعل كل من في داخل هذه المســاحة يشتوي كما يشتوي اللحم في فرن المايكروويف في المطبخ وقد أوردت هذا الخبر عدة قنوات فضائية عربية وأجنبية يوم الاثنين ٤/١٤ أي بعد أسبوع من الحادث، مما أدى إلى إبــادة ثلاثـــة ألويـــة من الحرس التي قامت فرق الإنقاذ الأمريكية بانتشـــالهم وإخفائهم ودخول قوات التحالف المطار بعد ســـاعـــات من ذلـــك للمرة الثانية لكي تثبت للإعلام العالمي كذب

الصحاف وصدق إعلامــــهم، وتجعل صوت العراق يتخافت تدريجياً حتى يتلاشى، وقد بقي دخول المطار محظوراً على الإعلام المحايد لمدة عشرة أيام بعد ذلك الحدث الرهيب، وقد روى لي بعض الثقات أن مثـــل هذا الأمر تكرر في حي الفرات/ منطقة الجهاد، حيث كان فيه موقع للفدائيين مما أدى إلى اســـتشهاد عدد كبير من الفدائيين والمدنيين وهدم عشـــرات المنازل في الحي، وهناك أخبار تقول إن حي العامل وما خلفه باتجاه أبي غريب وكذا حي المهدية في الدورة قد شـــهد استخدام سلاح محرم مماثل وستكشف الأيام القادمة شيئاً من هذه الأســـاليب اللاشـــرعية التي مارســـها الأمريكان مع شعب العراق لاحتلال بغداد، بعدما يئســـوا من الأساليب التقليدية، إن هذا الفعل الإجرامي وما ســـبقه وما لحقه من قصـــف فندق فلســـطين مريديان وقتل الصحفيين، شاهد على بربرية الأمريكان والصهاينة وأســـاليبهم القذرة في الحروب، كما إنه دليل على جبنهم وخورهم وعدم قدرتهم على تحقيق أهدافهم إلا بالأســـاليب المحرمة وبكذبهم على العالم وتحجيمهم صوت الحق من الإعلام المحايد في كافة دول العالم لاسيما الإعلام الأوربي والإعلام العربي الحر.

إن هذه النتيجة التراجيدية المأســـاوية والطريقة اللا شرعية التي كسبوا فيها معركة المطار قد أذهلت الناس وأدت إلى الهرج والمرج والانهيـــار في النهاية، ثم تلا ذلك في يومي الاثنين والثلاثاء حركة إنزالات عســـكرية وقصـــف شديد على كافة المحاور للإطباق على

بغــداد واحتلالها، حيث تمت الســـيطرة الكاملة على جانب الكرخ بأكمله بعد أن بدأت مؤســـســـات النظام تنهار بشـــكل مفاجئ يوم الثلاثاء لاســيما بعد قصــف القصر الجمهوري ونجاح الإنزال فيه واختراقه ودخول قوات الغزو فيه، وقصف موقع اجتماع القيادة في المنصــور، وقصــف فندق مريديان ومقتل عدد من الصحفيين يوم الثلاثاء، وتدمير مبنى الإذاعة والتلفزيون بشــكل نهائي وإســكات البــث التلفزيوني وتحول بــث الإذاعة (الموقع البديل) من التردد الموجي AM إلى بث محدود جداً على الــFM الذي دام يومين حتى يوم الأربعاء الساعة ١٠:٢٠ ليلاً حيث انتهى بخطاب أخير لصدام حســين والســلام الجمهوري بعده، ويعتقد أن البث كان من داخل الأعظمية ولم يسمعه أحد خارج الأعظمية في أحياء بغداد الأخرى. وكان ذلك الخطاب الحزين هو الخطاب الثالث والأخير خلال الحرب، والذي قص لنا النهاية القدرية لحكم صدام في العراق. فقد كان في علم الله وقدرته أن لا يقهر نظام صدام وبطشه إلا عصبة أعظم منه وأشد بطشاً وقوة، وتلك هي الأيام يداولها الله بين الناس لا معقب لحكمه ولا راد لقدرته ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

لقد واكب هذا السيناريو الأمريكي لحسم الموقف واحتلال بغداد يوم الثلاثاء ٤/٨ تحديداً، تفشــي خبر صاعق انتشر بين الناس كالنار في الهشيم مفاده أن صدام قد قتل مع ابنه عدي وأن قصي قد هرب وأن أفراد حزب البعث قد قرروا الاســتســلام وترك أســلحتهم في

المقرات الحزبيـــة والهروب والاختفاء السريع من الساحة. ولكن- في اليوم التالي- تبين أن صدام لازال حياً ولم يقتل في القصف أو في انقلاب كمـــا ادعى الخبر، فقد ظهر صــــدام في الأعظمية ظُهر الأربعاء ٤/٩ ليكذب الخبر بشخصه، أما الحزب وقيادته فقد تبخرت فعلاً كما قالها صـــدام قبل عامين عند بدء الانتفاضـــة الفلسطينية، تعقيباً على ما جرى في حرب بوش الأب قبل عشـــر ســـنين، فقال بلهجـــة عراقيـــة (قابل تبخرنا) وفعلاً تبخر الحزب وأجهزة النظام العملاقـــة كلها وفي ســـاعة واحدة، ولم نجد بيننا أحداً من أفراد الحزب المعروفين، فمعظمهم قد اختفى منذ الثلاثاء، أما البقية فقد اختفت تماماً صباح الخميس ٤/١٠ مع باقي رموز النظام وأركانه من الجيش والشرطة والدوائر الخدمية، مما ولد فراغاً كبيراً سبب الأحداث اللاحقة الأليمة، وتلك صـــفحة أخرى من الســـلب والنهب سنتكلم عنها لاحقاً.

لقد تمركزت القوات الأمريكية شمال بغداد في القصر الرئاسي على كورنيش الأعظميـــة وفي كلية بغداد اللاهوتية التي بناها الأمريكان قبل أكثر من خمسين عاما على مساحة كبيرة شمال الأعظمية وقد بنيت كنيســـة بجوارها، وكذلك تمركزت قوات التحالف في الجزيرة السياحية شمال بغداد على طـــريق الفحـــامة/ الراشدية وبكثافة عالية، وفي جنوب بغداد استقرت في معسكر الرشيد وملعب الشعب الـــدولي، ومن جهـــة الكاظمية تمركز الأمريكان على طول طريق

الموصل من بوابة بغداد الشمالية حتى منطقة معسكر التاجي، وقد رأيـــت أكثر من ٧٠٠ دبـــابـــة وعجلة عراقية محترقة من جراء القصف المركز ومعركة التاجي/ بوابة بغداد التي حدثت يوم الأحد ٤/٦ والتي تكبد المحتلون فيها خســـائر فادحة بالأفراد والمعدات، ولكن الإعلام العراقي كان قد أصـــيب بالإعياء والشلل نظرا لكثرة الإنزالات العســكرية حول بغداد في تلك الأيام الحاسمة، مما أربك الوضـــع العسكري والإعلامي في بغداد، فتم بهذه القوات المحمولة القضـــاء على آخر ما تبقى من قوة كبيرة في وســـط بغداد بعد اســـتخدام الســـلاح النووي المحدود في المطار واســـتخدام القنابل الثقيلة والعنقودية على المناطق المدنية في بغداد واشتداد القصف الجوي والصـــاروخي على كافة المحاور حول بغداد وفوقها. مما أدى إلى حسم معركة بغداد لصالح قوات التحالف يوم الثلاثاء ٤/٨ وانهيار النظام وحزبه، وذلك بعد أن أزيل صدام وأعوانه من القصر الجمهوري في نفس اليوم، ليختفي بشكل نهائي وغريب منذ الجمعة ٤/١١ وإلى الأبد من حياة الشعب العراقي الذي عاش في ظل حكمه المتســلّط حياة الذل والكفاف، ولم ينعم بالســـلام والاستقرار طوال العقود الثلاثة التي كان صدام يقود دفة الحكم فيها، فلم تكن تنتهي حرب حتى يدخل الشـــعب في حرب جديدة أوسع دمارا وأخطر أثرا وأبهض ثمنـــا، فمن القمع والحرب الـــداخلية والتوترات إلى حرب إيران الطويلة ثم حرب الكويت فالحصار الظالم إلى الحرب الحالية

التي كان من الممكن تلافيها لو إن صـــدام أذعن لصـــوت العقل ونصيحة الناصحين بترك السلطة لمن يختاره الشعب أو أية صيغة ســياســية تخرج البلد من هذا الدمار والصدام غير المتكافئ بين العراق الذي أتعبته الحروب والحصار والحكم الدكتاتوري المتخلف وبين أكبر قوتين في العالم تمتلك تفوقاً جوياً وإعلامياً ليس له نظير في العالم.

لقد ظهرت بوادر الخلاف داخل القيادة العسكرية العراقية في نهاية الأســـبوع الثاني، ومن أســـباب هذا الخلاف الميدانية التي يمكن الإشـــارة إليها سببان أولهما، خطة قصي بفتح السدود والبحيرات المائية (كسد حمرين وسد القادسية في عانة وسدة الهندية وبحيرة الثرثار والحبانية والرزازة) بهدف إغراق أكبر مساحة من الأرض جنوب الحلة والنجف وكربلاء والكوت، لكي يتم عزل بغداد والفرات الأوســـط عن جنوب العراق وإعاقة تقدم قوات التحالف نحو بغداد، والســـبب الثاني هو خطة نشر قطعات الحرس الجمهوري وآلياته داخل أحياء بغداد في جهة الكرخ لاسيما في الدورة والسيدية وحي العـــامل والجهاد والعامرية وحي العدل والجامعة واليرموك، بحيث اضطرت القيادة العراقية إلى إخلاء بعض هذه الأحياء من المدنيين لاسيما في الدورة والسيدية، وقد كان أول تنفيذ ميداني لهذه الخطة يوم الأربعـــاء ٤/٢ أثناء معركة الدورة والســـيدية، وكان القادة المعترضون على صدام وقصي يرون إن المساحات المائية ستعزل

قطعات الجيش في الجنوب عن الإمدادات والإسناد من بغداد والوسط مما سيؤدي إلى محاصرتها وتدميرها لاسيما في البصرة والناصرية والعمارة، وإن نشر قوات الحرس الجمهوري داخل الأحياء المدنية سيؤدي إلى وقوع خسائر فادحة بين المدنيين وإلى تدمير مدينة بغداد نفسها، وأن فرض المواجهة والالتحام مع العدو خارج بغداد وعلى أسوارها هي الخطة الأكثر نجاحاً وفعالية في طردهم من بغداد وإطالة الحرب معهم وكسبها في النهاية، لأن قوات التحالف لا تستطيع الصمود طويلاً لأنها تخشى زيادة الخسائر البشرية لاسيما إذا ما أستطاع العراق إيصالها إلى الإعلام العالمي. ولكن المشكلة التي واجهت هذه الخطة وأفشلتها في النهاية هي القدرة العالية لقوات التحالف في إنزال قوات كبيرة وفي عدة مواقع قد تصل إلى عشرة مواقع في آن واحد، وكان نزول هذه القوات المحمولة بدروعها وآلياتها مع فرق الإنقاذ في أبي غريب والدورة والزعفرانية(مثلاً) في وقت واحد قد أربك الوضع العسكري في بغداد وأضطر صدام إلى التفكير في تغيير خطة أسوار بغداد الحصينة، وقد أدى هذا الخلاف إلى ظهور أخطار جسيمة وحقيقية في بغداد، كما أدى إلى عزل وإعدام عدد من القادة العسكريين وإلى بداية الخلل في قيادة صدام وقصي للحرس والحزب، فكان صدام يرى أن سلامة النظام هي مقدمة لسلامة العراق وبغداد، في حين رأى البعض أن التهلكة ينبغي تجنبها للحفاظ على بغداد حتى إذا

كانت على حساب النظام وبقائه. وقد حسمت معركة المطار الثانية واحتلاله يوم الأحد ٦/٤ الأمر ضد خطة صدام البديلة، وكانت بداية التردي والانهيار واســـتسلام قيادة الجيش والحرس والحزب تفادياً لما هو أخطر وأعظم من وجهه نظرهم التي لم تكن تخلو من تخاذل وترويع.

أهم الأسلحة الشاملة والمحرمة التي استخدمت ضد العراق

إن أهم الأسلحة المحرمة التي استخدمتها قوات التحالف وأسلحة التدمير الشامل التي التجأت إليها قوات التحالف لكسر شوكة الصمود العراقي واحتلال بغداد هي:

١- القنابل العنقودية المنفلقة التي سقطت على أحياء بغداد والمحافظات بكميات هائلة كالدورة والسيدية/ حي المهدية والجهاد/ حي الفرات والمطار ومعسكر الرشيد والعامرية والقصر الجمهوري وراغبة خاتون وسومر والشعب. وهذه القنابل يحرم القانون الدولي استخدامها في المدن وضد المدنيين لأنها شديدة التدمير، وهي تنفلق إلى ثلاثة آلاف قطعة (قنبلة صغيرة) تنفجر كل قطعة بشكل مستقل عن القطع الأخرى، وتغطي مساحة كبيرة تصل إلى ٢٠٠٠ متر مربع وتؤدي إلى تدمير وتهديم عشرات المنازل، كما حصل في المحمودية والدورة والسيدية والشعب وغيرها من الأحياء السكنية. وقد اعترف الإعلام الأمريكي باستخدام هذا النوع من السلاح وسقوطه على المناطق المدنية وادعى إنه استخدم ١٥٠٠ قنبلة من هذا النوع أثناء الحرب، والحقيقة التي يقوم الإعلام الأمريكي إخفاءها أو تحجيمها دائماً تجعلنا نتوقع إنه استخدم أكثر من عشرة آلاف قنبلة عنقودية منفلقة في البصرة والناصرية والنجف وبغداد والأنبار وغيرها من المدن العراقية، وقد أصبح الخداع مألوفاً لدى إعلام قوات

التحالف ضمن خطة إعلامية وحرب نفسية للتوهين والتقليل من خسائرهم الجسيمة وقتلاهم وسقوط طائراتهم، بحيث اعتاد الناس ســـماع أخبار عن اصـــطدام طائرتين أو وجود أعطال فنية في الدروع والطائرات، وان الخســـائر العديدة في قطعاتهم غالبا ما تكون بســـبب تعرضهم لنيران صديقة وغيرها من الأكاذيب التي كادت أن تفضح وتكشف نقاط ضعفهم الإعلامية والعسكرية أمام صـــمود الشعب العراقي وجيشه، مما اضطرهم إلى إسكات وشل الإعلام العراقي المتواضع والإعلام العربي والعالمي المحايد في منتصف الأسبوع الثالث للحرب، وقصفهم الوحشي لهذه القنوات الحرة التي ترفض تزييف الواقع وتكشـــف جبن وخوف الجندي الأمريكي رغم سلاحه المتطور وإمكانياته العالية.

٢- قنـــابل ثقيلة تزن ١٠ طن تقذفها الطائرات نوع B52 وغيرها على الدوائر الخدمية والبدالات وأجهزة الاتصـــالات والوزارات والأحياء الســـكنية، وقد اســـتخدمت أثناء التصـــدي والمقاومة العراقية في البصرة والناصرية والسماوة والنجف وسدة الهندية والحلة واليوسفية وأبي غريب والمطار والرضوانية والزعفرانية، وكانت هذه القنابل الهائلة الفتاكة تحدث اهتزازات أرضـــية تصل إلى ٤–٥ درجات بمقياس رختر للزلازل. كما استخدمت الحاويات المتفجرة التي ترميهـــا الطائرات والتي تحتوي على كمية كبيرة من القذائف والقنابل الشـــديدة الانفجار والتي تزن مئات الأرطال

من المواد المتفجرة التي تقــذف بجحيمهــا وحممها على المدن العراقية وعلى المدنيين والعسكريين سواء بسواء.

٣- القنابل الصوتية التي تولد الرعب والترويع في نفوس المدنيين من الأطفال والنســـاء، وقد ازداد اســـتخدام هذه القنابل خلال الأسبوع الثالث من الحرب في بغداد. وكنا نسمع أصوات القصف المرعبة لهذه القنابل الصــوتية لســاعات طويلة متواصلة خلال الليل. وكانت تحدث ارتجاجاً قويا في أركان البيت وعصفا مخيفا يكاد يقلع الأبواب والشبابيك ويحطم الزجاج.

٤- القنابل النووية التكتيكية التي اســـتخدمت في حســـم معركة المطار الثانية والرضوانية وأبي غريب وحي الفرات، والتي أدت في المطار إلى تدمير ثلاثة ألوية من الحرس الجمهوري والقضاء عليهـــا قضـــاءً مبرما. كما أكد لي شـــهود عيان من المدنيين والحرس الجمهوري في هــذه المناطق، وإن هذا الســـلاح غير التقليــدي قد أدى إلى حرق وتفحم جثث الشـــهداء في المطار وطريـــــق العـــــامرية أبي غــــريب، وكذلك حول النجف في المعركة الأخيرة قبل معركة بغداد يوم الثلاثاء ٤/١.

٥- القنابل المايكروويفية المحدودة التأثير والتي اســـتخدمت في العـــــامرية/أبي غريب والمنصور والقصر الجمهوري ومناطق أخرى والتي أدت إلى مقتـــل الآلاف وحرقهم وتفحمهم وكـــأنهم داخل أفران المايكروويف بحيث شاهد عدد كبير من شهود العيان

الجثـــث المتفحمة داخل الســـــيارات على طريق أبي غريب دون حدوث ضـــرر واضح في السيارات التي كانوا يستقلونها. وكذلك بين المدنيين والعسكريين في الشوارع، ويروي شهود عيان عن الجثث المحترقة والمتفحمة أنها كانت تبدو مشـــوية من العظم حتى الجلد الخارجي.

٦- **القنابل الجرثومية والبايولوجية، حيث انتشـــر في بغداد يوم الأربعاء ١٥/ ٤ نبأ سرقة حاضنات لتوليد أنواع من الفيروسات الخطيرة من المختبرات المركزية في وزارة الصـــحة في ساحة الأندلس والمســـتشفى الاولمبي، وقد سمعنا بذلك في منازلنا ليلة الأربعاء عبر مكبرات الصـــوت وعبر الإذاعات أيضا، ويمكن أن تكون هذه القصـــة حقيقية ومن إفرازات أعمال الســـلب والنهب التي تلـــت الحرب مباشـــرة، وقد تكون خدعة لترويع وترهيب ســـكان بغداد، وقد تكون أيضـــا مقدمة للتلويح باســـتخدام قنابل جرثومية وبايولوجية واتهام نظام صـــدام أو عصـــابات الســـلب والنهب بها. وكل شيء وارد ومتوقع في هذه الظروف وفي جو يســـوده فقدان الثقة بين قوات الاحتلال والشعب. كما ذكر أنه قد تفشى وباء اللشمانيا** Leishmania **في جنوب العراق، حيث أعلنت قوات الاحتلال يوم الخميس ٤/١٧ عن انتشار هذا الوباء. ومن المبكر البت في أسباب ظهور هذا الوباء وهل هو جزء من حرب جرثومية بايولوجية خفية اســـتخدمتها قوات التحالف لإضـــعاف**

الصمود العراقي ودحره ؟ أم انه من جراء الآثار السلبية للحرب، وبســـبب كثرة الجثث المتفسخة لقتلى الحرب من الطرفين. وقد انتشرت أخبار هذا الوباء في جنوب العراق ويعد مرض اللشمانيا من الأمراض الخطيرة التي تنقلها حشـــرات صـــغيرة أصغر من البعوض، وهو يصـــيب الكبد والطحال ويؤدي إلى الوفاة لمعظم الإصـــابات وهو مرض صـــعب المعالجة، وقد ذكرت إذاعة الـــ BBC أن هناك أكثر من ٧٠٠ إصـــابة في الناصرية ومثلها في الزبير والبصـــرة، وهي المناطق التي حدثت المعارك العنيفة بين قوات التحالف والعراق خلال الأسبوع الأول للحرب، ولا نستطيع التكهن الآن عن أســـباب انتشار المرض، فقد يكون بسبب تفسخ الجثث الكثيرة أو بســـبب الأسلحة المستخدمة وقد يكون المرض نقل إلى العراق بشكل متعمد؟ وسيكشف المستقبل الكثير عن هذه الأســـرار، وربما يجيب عن هذه الأسئلة وغيرها، وفي مقدمتها عملية تدمير العراق المنظمة التي تمت خلال حرب الحرية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية..!.

٧- قنابل منوعة أخرى كانت ترمى مع المنشـــورات على المدن العراقية من الطائرات على شكل دمى وأقلام ولعب أطفال لتصيب المدنيين وترهب وتقتل الأطفال.

ترويع الحزب والجيش وانهياره

لقد كان آخر بيان رسمي عسكري صدر عن الإعلام العراقي مساء يوم الاثنين ٤/٧، وكان هذا البيان مقتضـــباً وإجمالياً، كما إنه لم يتحدث عن خسائر كبيرة في قوات العدو كما هي العادة في البيانات السابقة وأظنه كان يحمل البيان رقم ٢٠. وكان ذلك قد أثار الريبة والاســـتغراب في أوســـاط المتابعين في بغداد، ثم علمت في اليوم التالي من أحد الضباط العراقيين أن أمراً عسكرياً موقعاً من رئاسة الأركان جاء إلى آمري الوحدات معنونا باســـم آمر الوحدة يأمرهم بالتوقف عن القتال ونزع السلاح وإنزال العلم في الوحدات ومواقع القتـــال في بغـــداد والعودة إلى البيوت، وأمراً آخر إلى الـــدفاعات الجوية بالتوقف عن ضـــرب الأهداف الجوية ســـواء بالمدفعية أو الصواريخ أو الأسلحة الأخرى، وبدت أصوات المدفعية والصواريخ المعادية قريبة منا في الأعظمية، حيث كانت في المطار وأبي غريب ثم اقتربـــت إلى حي العـــدل والجامعة والحرية وســـاحة عدن في الكاظمية وكانت مدفعية العدو تمشط هذه المناطق تباعا واستمر هذا التمشيط من أبي غريب حتى ساحة عدن والعطيفية ٣٦ ساعة فقط، مشيرا إلى سرعة تقدم وزحف قوات التحالف لاحتلال بغداد، ومدللا على عدم وجود مقاومة للقوات العراقية الضخمة المحيطة ببغداد، وان هناك أمرا ما قد حدث وشـــل حركة الجيش والحرس والحزب

بعـــد يوم الأحد ٦/٤، وكان ذلك مثار ريبة واســـتغراب الناس في بغداد بعد هذا التدهور السريع الذي حصل في الموقف العسكري في بغداد كما هو في باقي المحافظات، وبدأ الناس يتحدثون عن الخيانة والصفقة التي تحدث عنها الإعلام في الإذاعات الأجنبية والعربية، وقد حدثني أحد شـــهود العيان الذي جرح في معارك بغداد/ الكرخ أنه علم من الجنود المقاتلين أن أوامر صـــدرت لهم من رئاســـة الأركان بنقلهم إلى جلولاء وخانقين خارج بغداد وقد كانت المعارك على أشدها في أبي غريب والعامرية والمنصور وحي العدل والقصر الجمهوري، وكان ذلك يوم الاثنين ٧/ ٤، كما صدرت أوامر أخرى بفتح الأجازات للجنود، وكانت مثل هذه الأوامر العسكرية الصادرة من جهات عســكرية عليا وفي وقت حرج وعصــيب وموجهة إلى آمري الوحدات ومدراء التشــكيلات بالاســم، مما يدل على تورط العديد من المتخاذلين والخونة وعملاء الأجنبي بخطة تســليم بغداد إلى قوات التحالف بدون قتال. وقد حدث خلاف حاد وصــــراع بين رموز النظام وقادة الجيش أدى إلى إعدام بعض القادة في الحرس والجيش ويذكر أحد الثقاة أن هناك العديد من الضباط الكبار وبعض قادة الجيش والحرس قد أعدموا من قبل صدام ونجله قصي. وتقول الروايات أن صـــفقة حدثت بين قيادة الجيش والحرس وبين قوات التحالف بتســليم بغداد دون قتال، ورواية أخرى تتحدث عن صفقة بين صدام والأمريكان بواسطة السفير الروسي، وقد أثبتت الأحداث

وبقاء صدام بعد انهيار حزبه ونظامه زيف وسقوط الرواية الثانية وذلك لا يمنع أن هناك مفاوضات قد حدثت في الأيام العشرة الأولى للحرب بين صـــدام وروســيا عبر ســفيرها في بغداد، وقد رصــد الأمريكان ذلك وقاموا بقصــف موكب السفير الروسي عند خروجه من بغداد في طريق الرمادي في الأسبوع الثاني للحرب، حيث كانوا يظنون أن صــــدام كان مع الموكب الروســـي وكانت تلك الحادثة والعمــل الإجرامي الذي كان يفتقر إلى أي نوع من الدبلوماســية واحترام الرعايا الأجانب والشخصيات الدبلوماسية والسفراء، حيث قتل عدد من الدبلوماسيين الروس وجرح السفير، وفي حينها كنت مشغولاً منذ أسبوع في محاولة تثبيت الناس وتقوية المعنويات وفي إســناد الجبهة الداخلة المتصـــدعة، حيث قمنا بأعمال الحث على التبرع بـــالــدم، ونـــذكر الناس بأهمية هذا العمل مع تزايد أعداد الجرحى، حيث ذهبت في البداية مع عائلتي للتبرع في مصرف الدم في باب المعظم وســـط بغداد، ثم تلتها جمع المتبرعين ونقلهم إلى المصرف، وقد بلغ عددهم أكثر من ١٥٠ متبرعاً في الأعظمية فقط خلال الأســبوع الثالث للحرب، فضـــلاً عن مئات المتبرعين الذين تبرعوا في جــامع أبي حنيفــة وبعض جوامع بغداد الأخرى خلال الأســبوعين الســابقين، والتي كانت بالتنسيق بين وزارة الصحة وهذه الجوامع، ولقد تعاون معنا بعض الشباب وأصحاب السيارات لنقل المتبرعين وتوفير شيء من الأكل والشرب لهم، بعد أن توقف

عمل لجان التبرع بالدم الرسمية بسبب الظروف المتداعية وفقدان النظام وصـعوبة المواصلات في الأيام الأخيرة التي سبقت سقوط الدولة، ولقد لمسـنا همة عالية وروحاً متعاونة لهؤلاء الشـباب المتبرعين بغض النظر عن مشـاربهم وتوجهاتهم وانتماءآتهم بل كان منهم العابث والسـكير والصـغير والكبير فضلا عن أصحاب الهمم والمشـهود لهم بحب البلد والتضـحية في سبيل الله وخدمة النـاس وقـد ذكرني ذلك الموقف لبعض الناس الذين كنا نظنهم لا يسـتجيبون لأعمال الخير هذه بحديث النبي ﷺ والذي يقول الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسـلام إذا فقهوا، وقد فرحنا لهذا العمل الجماعي البسيط والذي لاقى هذا القبول والارتياح والاسـتعداد الكبير للتبرع من قبل الشـباب، فالحس الوطني كان عميقاً لدى الجميع، كما قمنا بإسـناد مسـتشـفى النعمان ببعض المتطوعين في تمريض الجرحى، ثم في يوم الثلاثاء، دعونا الناس في الجامع للقيام بالخفارات لحراسـة المنطقة من أي غريب بسبب الاضطراب الأمني الذي كان يتعاظم مع توالي الساعات. وفي يومي الثلاثاء والأربعاء بدأنا نسـمع أخبار الدولة من إذاعة الـ FM محدودة البث، لكنها لم تكن تبث غير أناشـيد وطنية قديمة وليست حديثة كما تعودنا أن نسـمع في الأسبوعين الأولين للحرب، وكان هناك مذيع واحد وكان صوته غير معروف لدى المستمعين، وكان يذيع كل ساعتين بعض الأخبار المحلية التي لا تسمن ولا تغني من

جوع ولا تدل على اتصـــاله بخلفية إعلامية واســـعة لدولة مثل العراق، وإنما تشـــير إلى أنه كان جالساً في منزل أو مكان صغير ويبث كأي إذاعة شخصية، وفي ظهر الأربعاء جاءنا أحد الأشخاص بعد أداء الصـــلاة وهو يقول أن الرئيس صـــدام في جامع الإمام الأعظم أبي حنيفة ومن يريد أن يراه يركب في ســـيارتي (وكانت ســـيارة جمســـي كبيرة) وركب معه عدد من أهالي المنطقة في الســـفينة (محلة في الأعظمية) ولكني لم أرغب أن أذهب إلى هناك لأني كنت قد تجولت مع الخفراء الآخرين حتى ســـاعة متأخرة من ليلة الثلاثاء وكنت متعباً، وبعد العصر سألت بعض الذين ذهبوا إلى الجامع لرؤية صـــدام هل وجدته، فقال لم نلحق به فقد ترك المكان قبل وصـــولنا بربع ســـاعة، ثم رأيت أحد أصـــحابي وكان قد رآه وصـــافحه وقال لي لقد عانقته وقال أنتم أهل الأعظمية أبطال. ولم يكن هذا الرجل من محبي صدام أو المهتمين بالسياسة، ولكن صدام في أيـــام الحرب هذه كان قد فرض بعض الهيبة والعاطفة الفطرية تجاهه كرمز للعراق ولبقاء النظام والقانون في البلد، رغم استبداده وظلمه لكثير من الناس، ولكن بعض الناس حينما كانوا يشـــعرون إن البـــديـــل هو الاحتلال والغزو الأجنبي يميلون إليه فطرياً، وهذا السبب نفسه هو الذي دفع العشائر وأهل المدن في الجنوب والوسط والغرب والشمال إلى التصدي للغزو الغاشم، فالعراقي عزيز النفس أبي لا يرضـــى المهانة والاحتلال بأي صورة تكون، فظلم صدام قد

يموت معـــه حين يموت أما ظلم الاحتلال وذله فيبقى دهراً طويلاً، وقد حدثني شاهد عيان آخر أنه رأى صدام في ذلك اليوم مع وزير دفاعه أو رئيس أركانه وولده قصي على جسر الأئمة أمام الجامع، وقد عثرت رجله وهو يحاول الصـــعود إلى الســـيارة وكان قصـــي يســـنده وهو في غاية الجهد والتعب، وقد بثت قناة الجزيرة لقطات من زيارة صدام للأعظمية ظهر الأربعاء ٩/ ٤ وذلك بعد أسبوعين من تلك الزيارة اليتيمة، وقد ســـألته امرأة عن ســـبب تلك النهاية وهذا الذي حصل فأجابها قائلاً: لقد خانني أقرب الناس ألي !.. وقد كرر ذلك في خطابه الأخير، ولكنه لم يفطن أن الناس لا تضـــحي وتقاتل نيابةً عن أحد ســـوى الدين والوطن. ثم ســـمعنا إنه شارك بنفســـه في معارك المنصـــور والأعظمية والعطيفية مع الفدائيين، وكان يحمل القاذفة والسلاح الخفيف بنفسه، كما إنه دافع قبل أيام عن ســـاحة النسور واليرموك بنفسه أيضاً، وهذا الأمر رواه الكثير في معظم مناطق بغداد. ونقول للتاريخ، إن صـــــدام كان بحق رجلاً شجاعاً مستبداً خذله أتباعه وحزبه، كما أن عناده جعله لا يثق بأحد ولا يعطي الســــلاح إلا لمن يواليـــه ويتبعه، وتلك هي الثغرة التي أفقدته جوهر القضـــية العادلة، ومنعت المخلصـــين والمؤمنين أن يقاتلوا معه للدفاع عن البلد، فاضـــطروا أن يقوموا بدور هامشـــي خدمي، ويدعون الله أن يثبت المجاهدين وللبلد بالنصـــر والصـــبر والمرابطة، وتلك حالة مع أهميتها غير كافية لإحراز النصـــر، فان

المنتفعين هم أول من يفر من الزحف لأن الحياة عندهم غالية بعدما خبروها وعاشوا نعيمها وترفها، وهكذا تبخر الحزب ولم يقاتل في ســاعة العســرة والحاجة إلى القتال والجهاد. وقد أعترف صــدام بهزيمة حزبه وأعوانه في آخر خطاب بثه عبر إذاعته الشــخصية الباهتة على الـــ FM ليلة الأربعاء في آخر لحظات حكمه المنهار، فقد خطب في الســاعة العاشرة في ليل ذلك اليـــوم الكئيب ٩/٤ وقـــال: لقد وعدتموني وحلفتم الأيمان الغليظة أن تقاتلوا العدو وحتى النهـايــة، ولكنكم والله لم تقاتلوا كما وعدتم، لم يقاتل غير الفدائيين والقيادة (ويقصد نفسه) ثم دعا إلى الصبر وتدارك الضعف الذي حصــل والعودة إلى القتال، وإن الأيام القادمة ســتشهد عملاً متواصلاً لطرد الغزاة من بغداد، ثم توقف يبكي أثناء الخطاب ثلاث مرات، ثم وعد بالاســتمرار وإنه ثابت ومستمر بالجهاد حتى آخر قطرة من دمه، وختم كلامه بالتكبير وهو يردد، الله أكبر وليخســأ المجرمون. ثم ختمت الإذاعة البائسة بثها بآخر سلام جمهوري في عهد صــدام ليتوقف البث إلى الأبد. لقد ذكرني بكاء صدام هذا في آخر كلمة له وهو يودع فيها بغداد قبيل ســقوطها، ببكاء عبد الله الصــغير آخر ملوك غرناطة وهو يرحل عنها أثناء سقوطها بأيدي الأســبان وكانت أمه الأميرة عائشة واقفة بقربه فقالت له: ابك يا

بني مثل النســـاء، ملكاً لم تحافظوا عليه مثل الرجال(*). ورغم أن صدام قد اثبت انه رجل شجاع في تحديه لأمريكا والصهيونية إلا أن حزبـــه وأتباعه لم يقاتلوا كالرجال الشـــجعان، إنما الذي قاتل هو الشعب الذي حرمه صدام أبسط حقوقه، ومع ذلك استطاع أن يقهر الغطرســـة والطغيان الأمريكي ويصمد أمام تلك القوة ثلاثة أسابيع بـــأيامها ولياليها ويلقن قوات التحالف دروســـاً ســـتظهر آثارها وثمـــارهـــا على العـــالم مهمـــا حاولوا إخفائها وتزييفها بالماكنة الإعلامية المتطورة التي يمتلكونها.

(*) وقد روي الخبر شعراً كما يلي:

ابك مثل النساء ملكاً عظيماً   لم تحافظ عليه مثل الرجال

معركة الأعظمية

في يوم الخميس ١٠/ ٤ شـــهدت الأعظمية معارك شرسة وقصفاً شـــديداً منذ الفجر ولمدة ســـت ســـاعات، حيث نزلت الدبابات والمدرعات الأمريكية إلى شوارع الأعظمية وعبرت من الكرخ من جسر ١٤ رمضان القريب من المقبرة الملكية وكان عددها أكثر من ثلاثين دبابة ومدرعة، وقد واجهها وتصـــدى لها الفدائيون العرب والعراقيون وكبدوها خســـائر فادحة بلغت ســـبع دبابات وأكثر من أربعين جنـــديا أمريكيا بين قتيل وجريح، وقد فتكت قوات التحالف بالمباني والمنازل والمتاجر والجوامع ودمرت أكثر من ٥٠ سيارة مـــدنيـــة، كمـــا وقع أكثر من ١٠٠ شـــهيد وجريح من الفدائيين والمدنيين من بينهم طفل وطفلة اســـتشـــهدا ولم يتجاوز عمر كل منهما ١٢ سنة، تم دفن معظمهم في الحديقة الخلفية لجامع الإمام أبي حنيفة. ويذكر العديد من أهالي الأعظمية أن صدام شوهد فجر الخميس في أحد مساجد الأعظمية الصغيرة، وهي آخر ليلة لصدام كـــان قـــد بات فيها في منطقة الأعظمية، وتذكُر الروايات أنه كان متخذاً أحد البيوت الصـــغيرة التي يملكها شـــخص مقرب من نجله عـــدي وكراً له، وتقول روايات أخرى أنه كان يبيت في مدرســـة الأعظمية في شارع المقبرة الملكية، وأياً كان الأمر، فإن صدام لم

يظهر ثانية في الأعظمية بعد نهار الخميس الذي شـــهد القصـــف الشديد والمعارك الطاحنة بين قوات التحالف والفدائيين.

وقد أعلنت قوات التحالف إن نظام صدام قد سقط يوم الأربعاء ٤/٩ بعد أن تم لها السيطرة على القصر الجمهوري ومعظم مواقع القيادة المحصنة وسقوط جانب الكرخ بأكمله، ومحاصرة منطقة الرصافة، وكــانت الأعظمية آخر مناطق بغداد ســـقوطاً حيث ســـقطت يوم الخميس ٤/١٠ بعــد معركة الأعظمية التي كانت آخر المعارك في بغداد.

لقد انتهى هذا الحكم الفردي الذي لم يكن يؤمن بالتعايش مع الأفكار الأخرى أو الآراء المخالفة الأخرى أو المؤســسات الأخرى إلا أن تكون سائرة في ركابه تنفذ رغباته وميوله وتخدم منهجيته القاصرة التي أصــبحت مع الزمن والتطور الفكري والحضاري من المبادئ والأفكار المتخلفة التي يستحيل أن تعيش في ميادين الواقع المعاصر الذي يفرض على الدول والشعوب والأمم التداخل والترابط والتمازج لمواجهة العواصـــف الكبرى التي ولدتها العولمة والحداثة والثورة المعلوماتية وثورة المواصـــلات والاتصـــالات حتى عصفت بأركان الدول كالســـيادة والاســـتقلال والاقتصـــاد وغيرها من المفاهيم الضرورية لإقامة الدولة الحديثة.

لقد كان عصر صدام حقا عصراً فاقد الحيوية لا بد أن يزول، شأنه شـــأن كل النظم الدكتاتورية التي تفتقر إلى المنظار الواقعي. ولكن

تلــك النهــاية الســـــريعة المفاجئة التي حدثت تحت طرقات الغزو الأجنبي ومفهوم الاستعمار الجديد، وذلك الخذلان الذي لمسه صدام في نهاية ذلك التصـــدي البطولي لشعب العراق، يجعل في طعم هذه النهـــاية والهزيمة مرارة في فم كل عربي ومســـــلم، بل في فم كل داعية للســـلام والتعددية التي تحاربها القوة الغاشـــمة في أمريكا، والتي تريـــد فرض العولمة والأمركة مكانها، وذلك هو الذي يجعلنا نفرق بين سقوط صدام الحتمي بسبب فقدان نظامه لأهلية الاستمرار والحياة، وبين ضـــــرورة الجهاد والعمل الدؤوب لطرد المحتل الذي جعل شعاره الزائف إسقاط صدام ومنح الحرية للشعب المغلوب على أمره لتغطية أطماعه الاســـتعمارية.إن نظام صدام الذي كان غارقا في اللاشرعية والظلم البعيد كل البعد عن مفهوم العدل والعدالة كما ســـنوضـــحه لاحقا، لم يكن يحســـب أنه سيزاح من السلطة بنفس الطريقـــة التي كـــان يحكم الناس بها، طريقة القوة واللاشـــــرعية والعصــــا الغليظة التي بدأت تلوح بها أمريكا ضد خصومها، وربما أمريكا نفســـــها التي جاءت بصــــدام ودعمت نظامه خلال العقدين الماضـــيين، لم تفطن أنها أصبحت تلميذة له ولمدرسته في ميدان الظلم واللاشـــرعية واللادســـتورية وهي تمارسها من خلال احتلال العراق باسم الديمقراطية والحرية، فيا لها من مفارقة وحكمة خفية يصـــفها بدقة الحديث القدســـي الذي يقول: الظالم سيفي أقتص به وأقتص منه. إن مفهوم اللاشرعية الذي طبقه صدام على العراقيين

خلال سنين حكمه، فسجن وقتل ومنع الحريات بدون وجه حق، هو الذي جاء بأمريكا إلى هنا بدون أي غطاء شـــرعي وقانوني، وهو الذي ســيطيح بأمريكا وبرنامجها الاستعماري وطغيانها وتجاهلها للشـــرعية الدولية والقوانين والأنظمة، كما إنه ســيطيح في نفس الوقت بكل النظم التي ســمحت لشريعة الغاب والغطرسة والطغيان أن يكون لها دور سياسي فاعل ومؤثر في الأحداث الدولية.

لقد اســتمرت المواجهات والمعارك في الأعظمية حتى مساء اليوم التـــالي الجمعة ١١/٤ حيث قام الجيش الأمريكي بقصـــف جامع وســاحة الإمام أبي حنيفة والعمارات المحيطة بها، ولم تســلم من أعمال القصـــف الوحشـــية حتى مقبرة أبي حنيفة التي يرقد فيها أموات أهالي الأعظمية وغيرهم، حيث ســقطت عدة صواريخ على المقبرة، ودمرت قبور الموتى وتناثرت القبور في وســط شـــارع المقبرة وعلى البيوت المقابلة للشارع، وقد حدثني شاهد عيان هو الأخ أبو محمــد أنـــه حــدثــت معركة عنيفة بين الفدائيين وقوات التحالف قرب مقبرة أبي حنيفة في الســـاعة الواحدة ليلة الخميس أستشهد فيها خمسة فدائيين، وقد بقيت جثثهم في الحديقة المجاورة للمقبرة وقرب جامع حسن بيك إلى عصر اليوم التالي، ثم تم نقلها ودفنهم مع بقيـــة الشـــهداء في الحديقة الخلفية لجامع الإمام أبي حنيفة، وكانت هذه المعركة تدور قرب منـــــــزله وقد أتيحت له متابعة وقائع هذه المعركة من منــــزله، وأصيبت إحدى الدبابات

أمام منـــــزله وانفصلت بعض أجزائها وكسرت الباب ودخلت إلى داخل البيت، وقد رأيتُ تلك القطعة من (سربس) الدبابة وكانت تزن أكثر من خمســـة كيلوغرامات، واســـتمرت المعارك بين الفدائيين وقوات التحالف حتى مســـاء الجمعة(*)، ومع ذلك لم يتوقف أهالي الأعظمية في مراسيم تشييع ودفن الشهداء يومي الجمعة والسبت.

ولقد شـــاهدت بنفســـي يوم الجمعة ١١/ ٤ آثار معركة الأعظمية وذلك القصـــف والتدمير البربري الذي أصـــاب معظم مرافق الحياة والأجهزة الخدمية والمدنية والجوامع والبيوت والمحلات والسيارات ولم تسلم منه حتى الطيور والحيوانات والحشرات، فقد حدثني أحد شـــهود العيان الذي كان يســـكن في شـــارع عشـــرين خلف بدالة الأعظمية أنه شـــاهد الحشـــرات والطيور تموت من جرّاء الدخان الكثيف الذي تصـــاعد من ركام بناية البدالة عندما قصـــفت للمرة الرابعة، وإن البيت قد امتلأ بالحشـــرات الميتة وكأنها ماتت بسبب غازات كيمياوية ســـامة كان تأثيرها المباشر على الحشرات قاتلاً، ولا نعلم ما هو تأثيرها البطيء على البشـــر وتلك ملاحظة بسيطة

(*) روى لي الشيخ وليد الأعظمي أن جامع أبي حنيفة ومأذنته وساعته الأثرية قد قصفت عصر الخميس ٤/١٠ بعد توقف المعارك، علماً بأن المعركة بين قوات التحالف والفدائيين قد انتهت ظهر الخميس، غير أن اشـــتباكات متفرقة وقصـــف جوي قد تجدد في ساعات متأخرة من ليلة الخميس وفي عصـــر يوم الجمعة ٤/١١، حيث دمّر أحد الصواريخ عدة منازل في شارع الچرداغ وقرب محل الكبيسي وعلى جانبي الشارع.

لاستخدام أسلحة مجهولة ومدمرة وما خفي كان أعظم، وقد شاهدت بنفســـي بقية بنايات البدالات المدمّرة بالكامل أو معظمها حيث تم تـــدمير بدالة باب المعظم بالكامل ورأيت بدالتي المأمون والســـنك المســـؤولة عن نظام الاتصـــالات الدولية والمحلية وبين محافظات القطر، حيث قطعت وشـــلت الحركة الرئيسية لشبكة الاتصالات في بغداد والعراق بأكمله بعد القصف المركز والشديد يوم الأحد ٦/ ٤.
لقد بدأ هجوم قوات التحالف على الأعظمية فجر الخميس الســـاعة الخامســـة بقصف جوي شديد ودخول رتل من الدبابات والمدرعات من جسر ١٤ رمضان مع تحليق طائرات التجسس بدون طيار في سماء الأعظمية وكنا نظنها زوارق نهرية للعبور إلينا من الكاظمية، ثم عرفها الناس واعتادوا صـــوتها وأزيزها طوال يومي الخميس والجمعة، وكانت طائرات الأباشـــي تجوب سماء الأعظمية وتضرب كل جســـم متحرك وترد على أي إطلاق نار، وكانت تســـند أرتال الدبابات والمدرعات وقد قصـــفت ودمّرت مخزناً للذخيرة وموقعاً للقيادة في منطقة الحارة قرب جامع الشـــابندر، وقد طال القصـــف بالمدفع الرشاش لطائرات الأباشي معظم المنازل من ضمنها سطح منـــــــزلي. وحدثت مطاردات ومعارك عديدة بين الفدائيين وقوة الـــدروع، وقد علمت فيما بعد أن هناك ثلاثة أرتال دخلت الأعظمية رتل من الكاظمية/ العطيفية عبر جسر ١٤ رمضان، ثم مرت على شـــارع الكورنيش بمحاذاة مستشفى النعمان ثم منطقة (المسناية)

فســوق حي الســفينة ثم توزعت في أزقة السفينة وحدثت معركة كبيرة في أزقة الحي الضيقة. أما الرتل الثاني فجاء من كلية بغداد وطريق الصــليخ/ ســبع أبكار ودخل شـــارع عمر بن عبد العزيز ووصــل إلى ســاحة عنتر ورأس الحواش وسط الأعظمية ليلتقي بالرتل الأول بعد أن قام بتمشــيط شارع عمر وساحة عنتر وسوق الأعظميــة الكبير، وجــاء الرتــل الثالث من القاهرة باتجاه راغبة خاتون ثم شارع الضباط ومكتبة الصباح ثم رأس الحواش، لتلتقي الأرتال الثلاثة في ســـاحة الإمام الأعظم، وقد حدثت معركة كبرى مساء الخميس في رأس الحواش وساحة الإمام الأعظم دمرت فيها عشـــرات المباني والمحلات التجارية والمنازل وتم تدمير أكثر من خمس دبابات بين ساحة عنتر وجسر الأئمة، وقد رأيت إحداها يوم الجمعة صباحاً قرب الجسر، كما رأيت ناقلة جنود مدرعة معطوبة في داخل محلة الحارّة قرب جامع الشـــابندر في حي السفينة، وقد استطاع الغزاة إخلاء معظم دباباتهم ومدرعاتهم المحترقة وقتلاهم، وقد سقط أكثر من ٦٠ شهيداً من الفدائيين والمدنيين وأكثر من ٤٠ جريحاً، كما اســتشهد ثلاثة من الشباب في السفينة قرب بيتي هم عثمان ومنذر وشــاكر، وكان شــاكر قد اســتشهد وهو ينقل أحد الجرحى إلى مستشفى النعمان بسيارته الخاصة (نوع كرونا) حيث رأيت الســيارة التي تعرضــت للرصـــاص من طائرة أباشي. وقد هـــاجمت قوات التحالف جامع الإمام أبي حنيفة وداهمته واعتقلت

١٤ شخصاً مدنياً كانوا من المصلين في الجامع على رأسهم الشيخ واثق العبيدي نائب الإمام والخطيب، وقد تم نقلهم كأسرى حرب إلى الناصرية وتم الإفراج عن الشيخ واثق وستة أشخاص ممن كانوا معه بعد أسبوع من اعتقالهم. وفي صباح يوم الجمعة قمنا بتشييع الشهداء ودفنهم مع أقرانهم في الحديقة الخلفية لجامع الإمام الأعظم. وبعد التشييع جاء عدد من الصحفيين الأجانب، منهم مجموعة من الصحفيين الإيطاليين قرب جامع الإمام أبي حنيفة، وتوافق وجودي في المكان فقمت بشرح مفصل للمعركة والقصف الوحشي للأماكن المدنية، وتم تصوير مأذنة أبي حنيفة التي قصفت بعنف مما أدى إلى تدمير الساعة الأثرية فيها -والتي نصبت على المأذنة منذ سبعين سنة- كما أدى القصف إلى حدوث ثقب كبير في المأذنة، وقد ضربت أيضا إحدى قباب الجامع، وكذلك قبة منتدى الإمام أبي حنيفة في الساحة المقابلة للجامع، مما ولد رد فعل عنيف وحزين لدى أهالي الأعظمية الذين يقدسون الجامع ويعتبرونه رمزا لهم ولانتمائهم الديني والمذهبي، وقد بكى الكثير من الرجال والنساء على مظهر الجامع والساحة والسوق والحي كله بعد القصف الوحشي والتدمير الكبير الذي أصاب مدينة الأعظمية العريقة والجميلة والتي يطلق عليها بعض المحبين مدينة المولد النبوي الشريف ومدينة الإمام الأعظم، علماً بأن هذه المنطقة التي حدث فيها القتال في حي السفينة منطقة خالية من أية منشآت

عسكرية أو صناعية، وهي من المناطق القديمة في بغداد ويسكنها الكثير من العوائل الفقيرة والمتوسطة في بغداد. وقد قمت بإيصال الصحفيين الأجانب إلى الحديقة الخلفية للجامع لرؤية وتصوير مقابر الشهداء الذين كانوا يصلون تباعاً، ولا أدري هل تم نشر هذه الحقائق أم إن الإعلام الأمريكي وإرهابه حال دون نقل هذه الحقائق إلى العالم.

خطة الصدمة والترويع البديلة

لقد بات واضحاً أن خطة الصدمة والترويع التي تحدّث عنها بوش ووزيره رامسفيلد قد أجهضت في الأسبوع الأول من الحرب تحت وطأة صمود الشعب العراقي الباسل بكل فئاته ومذاهبه ومشاربه، كما إن الفشل الأمريكي قد بدا واضحا في شمال العراق كما هو في جنوبه، وقد كانت حسابات بوش في الحرب الخاطفة واستخدام مبدأ الصدمة والترويع قد أصبحت هباءً منثوراً، فلم يستطع بوش أن يكسب شيعة العراق أو يقنعهم بصفقة القضاء على صدام مقابل أن يستقبلوه بالورود، ولم يستطع إقناع الأكراد ولا الأتراك في الشمال بالتحالف للقضاء على صدام مقابل مكاسب اقتصادية وسياسية، فقد كان لقانون التدافع الرباني أثره في فشل هذه الخطة أيضاً.. حيث يقول تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾.

وهكذا استمر الفشل الأمريكي طوال أيام الحرب التي ذاق مرارتها بوش وبلير وجنودهما في صحراء العراق وعلى مشارف المدن العراقية على أيدي أناس أشداء، فمال الغزاة إلى المكر والخديعة والأساليب المحرمة والحرب النفسية الإعلامية لكسب المعركة، وهكذا حاولوا تطبيق مبدأ الصدمة والترويع بشكله القبيح بعدما خسروا المعركة التقليدية وأهينوا بين أحضان عملائهم والدائرين في فلكهم من الدول المتحالفة معهم، ولا يضر الشجاع أن يُؤخذ غيلة وغدراً بعدما أذاق عدوه مرّ الهزيمة، حين رأى العالم صمود الشعب أمام أعتى قوتين في العالم، ذلك الصمود الذي يعرف قيمته المؤمنون وينكره الذين ختم الله على قلوبهم من المنافقين والنفعيين، وسيكون ذلك الصمود مفتاحاً لخلاص العالم من هذا النظام الدولي الجديد الذي يريد أن يأكل العالم على طريقة القضم بدءً بالعراق وانتهاءً بأوربا وكل الشرفاء في العالم دولاً وشعوباً وأفراداً، وهنا تأتي رسالة العراق وشعب العراق للوقوف بوجه النموذج الأمريكي الاستعماري، الذي تظاهر بالشجاعة والقدرة على تحقيق أهدافه العدوانية، وحينها ستتضافر قوى الخير للخلاص من هذا النظام المتغطرس الذي يضمر الشر لكل أمم الأرض، ولا يريد الحياة إلا لمنهجه ونظامه الأوحد، أو تحجيمه وردعه -على الأقل- لأنه يحمل روح التكبر والاستعباد العالمي وروح الشيطان الذي يبغي الفساد في الأرض.

أمـــا في العراق، فلا أقــل من أن المقــاومة لهذا الاحتلال البغيض مســـتمرة ولا هوادة فيها وبكافة الوســـائل والســـبل بدءً بالكلمة المخلصـــة التي هي أقوى من السيف والصاروخ، وإن هذا الشعب الذي وقف وقفة التحدي والصـــمود في وجه هذا المد الصـــهيوني الشرير رغم عدم التكافؤ في الإمكانات والقوى لقادر على أن يلقن الغزاة الهزائم الماحقة، وأن يحاربه بكل الســـبل من أجل الســـيادة والحرية والسلام حتى يرجع عن غيه ويرحل بقواته الغازية رحيلاً أبدياً غير مأسوف عليه.

لقد كان لقرار الأمريكان في تصـــعيد الموقف العســـكري واستخدام الأسلحة المحرمة دولياً كالقنابل النووية والصوتية والاهتزازية في عـــدة مناطق حول بغداد بهدف احتلالها وإجهاض روح التصـــــدي والمقاومة بأي ثمن، ما يشـــبهه في الحرب الأمريكية اليابانية في نهاية الحرب العالمية الثانية حين اســـتخدمت أمريكا القنبلة الذرية في هيروشيما وناكازاكي، فالأمريكان بطبعهم الغريزي لا يتورعون عن ارتكاب المحرمات وإبادة الشـــعوب كما حصل أيضاً مع الهنود الحمر ســـكان أمريكا الأصليين، لذلك كانت خطة الصدمة والترويع البديلة بعد فشـــل الخطة التقليدية في الأســـبوع الأول. وكان لذلك القرار آثار جســـيمة غيّرت مجرى الأحداث لصـــاح الغزاة، فمنذ الخميس ٣/ ٤ بدأ المشـــروع الإجرامي بالتنفيذ المتتالي لاغتيال العراق وإنهـــاء نظـــامه وبنيته التحتية، واســـتمر ذلك حتى يوم

الخميس ١٠/ ٤ وهو اليوم الــذي حــدثت فيه معركة الأعظمية، ولإلقاء الضــوء على أثر خطة الصدمة والترويع والحرب النفسية الإعلامية التي قامت بها أمريكا بإعلام منفرد لا يسمح بأي عرض إعلامي مضاد أو محايد بعد قصف مراكز الإعلام الأخرى في بغداد لابد من اســتحضار حالة الناس في بغداد في ذلك الظرف. لقد ساد الهلع سكان بغداد المدنيين والعسكريين، فكان القليل منهم من قرر الصبر والمرابطة رغم مؤشرات الموت الجماعي المؤكد لمن يفكر بالبقاء، والأكثرية الباقية صــدمت وضعفت من جرّاء ذلك الترويع الذي بات الناس يتكلمون به علانية لا همساً، فقرروا ترك العاصمة والهرب بأطفالهم وعوائلهم عبر طريق بعقوبة وطريق الموصـــل وازدحمت فجأة محطات تعبئة البنزين، وخرجت آلاف الســـيارات بأهلها مع أحمال المؤن التي يتمكن أصحابها من حملها، ولقد حاول البعض إيقــاف هذا الزحف الرهيب للخروج من بغداد دون جدوى، فقد خرج أيام الأحد والاثنين والثلاثاء أكثر من مليون شخص، وقد روى لي أحد شـــهود العيان إن طريق بعقوبة وبعد بعقوبة طريق بلدروز والمقدادية قد اختنق بعشرات الآلاف من السيارات حتى إنه عد عدد صفوف السيارات المتجهة شرقا صوب بلدروز–مندلي إلى أكثر من ١١ صـــفاً، ولم يكن هناك مجال حتى في الطريق الترابي للعودة باتجاه بغداد، حيث كان يروم العودة، وكان ذلك يوم الجمعة ٤/ ٤ وعلى القاريء تصور ما حصل في الأيام اللاحقة التي كانت

أشد وطئاً واضطرابا من يوم الجمعة. لقد نجح الأمريكان -أخيراً- في خطة الترويع والهلع ليس بشجاعتهم وقوتهم العسكرية التقليدية ولكن بأسلحة التدمير الشامل المحرمة، وبالحرب الإعلامية أو لنقل بالإرهاب الإعلامي الشيطاني الذي لا يسمح إلا للمعلومة التي تخدم المخطط الأمريكي، وكذلك بتسخير أذنابهم من الجواسيس والعملاء الذين دخلوا بغداد من الشمال والجنوب والغرب، فكانوا أدلاء على مواقع الحرس والفدائيين والمواقع الحســـاســـة وإرسال الإشارات والإحداثيات بواسطة أجهزة إرسال إلكترونية خاصة لتسهيل قصفها وتدميرها وهكذا كان. لقد شـــمل الترويع ضـــباط الحرس وجنوده والحزب الحاكم فحدثت خيانات وتخاذل واســـتسلام جماعي وانهيار عام، فصـــدرت أوامر من بعض الخونة في القيادات العليا بوضـــع السلاح والعودة إلى المنازل وترك بغداد فريسة أمام الغزو الغاشم، وهذا ما تحدث به صـــدام في آخر كلمة له في ليلة الأربعاء ٩/ ٤ وهو يوم سقوط النظام واغتيال الدولة العراقية، ولعلي أستطيع أن أؤكد أنه لا لوم على المروّعين الفارين من بغداد لهول الصـــدمة والحرب النفســـيـــة التي كـــانت فوق طاقة البشـــر، والخيانات والاختراقات التي كانت تضع النار في الهشيم، كما إن موقف القلة من المرابطين الذين ســـلّموا أمرهم لله ســـبحانه الذي يقول في قرآنه: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾

هو الموقف البطولي الذي يصـــطف مع الشـــعب الذي صمد ووقف بوجه الغزو في جنوب العراق وغربه وشماله عشرين يوماً يقارع الأعداء ويلقنهم أقســـى الدروس، لاســـيما العشائر والجيش وأهل المـــدن والفـــدائيون، فقد كانت بحق ملحمة عراقية خالدة، إن هذا الشـــعب العظيم بعربه وأكراده وشـــيعته وسنته قد تحدى الطغيان العالمي وتصـــدى لأعظم هجمة شرسة بربرية شهدها التاريخ على شعب مسالم عريق كانت تحكمه وتقيده قوة مستبدة، لم يكن ينتظر من أحد أن ينقذه ســـوى الله ســـبحانه. ولكنه فوجئ بتآمر اليهود والعرب عليه وتحالفهم مع الغزاة لتدميره وتشويه صورته والقضاء على حضـــارته وتراثه العريق. وســـيكوى هؤلاء الظالمون بنفس النار التي أحرقوا بها هذا البلد العظيم.

إن حالة الوهن والتخاذل وموقف الذلة والمسكنة الذي وقفه البعض إزاء الحرب والغزو الأجنبي كلفت البلد غالياً وستكلفه أضعاف هذا الثمن في الفترة القادمة ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وإن هؤلاء المتفرجين والمتخاذلين هم الذين ســـيتحملون مسؤولية فقدان البلد سيادته واستقلاله واستباحته من قبل الأجنبي، يشاركهم النظام الفردي المســـتبد وفشله في مخطط التصدي للعدوان بسبب دكتـــاتوريته وعنجهيته الفارغة وغرقه في الخيال وعدم عمقه في حساب القوى المحيطة به سواء في فصائل أعوانه أو أعدائه وإنا لله وإنا إليه راجعون.

نظام صدام وأجهزته القمعية

لقد كان انهيار نظام صدام وأجهزته القمعية والإدارية في يوم واحد هو يوم الاثنين ٧/ ٤ وهو يوم ميلاد حزب البعث، ولغرض تكوين فكرة عن النظـــام وأجهزته القمعية الكثيرة لأكبر نظام قمعي ودولة ذات قبضة حديدية في العالم العربي سنحاول أن نلقي الضوء على عدد هذه الأجهزة ومؤســساتها حسب ما يراه بعض شهود العيان وأفراد الشــعب والحزب والجيش ممن عاشــوا وشهدوا وسمعوا عنها خلال العشــرين ســنة الماضــية وهي: جهاز الحزب الحاكم ويضم أكثر من خمسة ملايين عضو، علماً بأن درجات الحزب تبدأ من مؤيد ثم نصير ثم (رفيق) عضو فرقة ثم عضو شعبة ثم عضو فرع ثم عضو قيادة قطرية أو قومية. أما الأجهزة القمعية الأخرى فهي: جهاز الاســتخبارات ثم جهاز المخابرات ثم جهاز الأمن العام ثم جهاز الأمن الخاص وجهاز الأمن الاقتصـــادي ثم جهاز الحماية ثم الحرس الجمهوري ثم الطوارئ ثم الجيش ثم الشرطة ثم فدائيو صدام ثم أجهزة ديوان الرئاسة السرية وغيرها مما لا يعلمه إلا الله والراســـخون في معرفة هذا النظام، علما بأن هذه الأجهزة تراقب وترصـــد إحداها الأخرى فضـــلاً عن مراقبة الناس بكل صـــنوفهم وفئـــاتهم، وفق توجيـــه خاص وأســـلوب خفي عن أنظار الناس والأجهزة الأخرى، كما أن كل مســـؤول أو مدير عام أو آمر وحدة

أو وزير له بديل ومراقب ســـري يراقب حركاته وسكناته لئلا يشذ عن الطريق ويفكر بما يخالف مزاج وخطة القائد، ولو وسوس له شيطانه وفكر فالويل له، فقد يهان أو يسجن أو يطرد فوراً أو يرمى للكلاب والأسود الجائعة داخل أروقة الأنظمة القمعية السرية. ولقد كنا نرى ذلك واضحاً على وجوه المسؤولين والوزراء بل حتى على مستوى نواب رئيس النظام العديدين.

أما ســـجون النظام فهي من الكثرة والضبط والتنويع بحيث أن لكل جهاز قمعي من أجهزة النظام العديدة عدة ســـجون عدا الســـجون التقليـــدية القانونية الخاضـــعة للتفتيش الدولي ومنظمات حقوق الإنسان. وفي بغداد وحدها توجد مئات السجون الكبيرة والمتوسطة والصـــغيرة، كما أن هناك عدة محاكم خاصـــة ســـرية تغذي هذه الســـجون المتنوعة، كمحكمة الاستخبارات الخاصة ومحكمة الأمن الخاص ومحاكم الأمن العامة، والمشـــــهور إن معظم هذه المحاكم صورية، حيث يزوّد القضاة بقرار الحكم للمتهمين بعد عدة جلسات شـــكلية ونظام دفاع صـــوري بسيط، ثم يقرأ القاضي الحكم الذي قررته جهات سرية خاصة تقبع خلف الكواليس، ثم يودع السجين في السجن المحدد لحالته، سواء كان سجن سرياً أم علنياً، مدنياً أم سياسياً، وإضافة لهذه السجون الخاصة بالمحكومين والنزلاء هناك ســـجون خاصـــة بالموقوفين الذين لم يتم محاكمتهم، فقد يســـتمر المتهم الســـياســـي بدون محاكمة أشهراً طويلة أو سنين عديدة أو

يوضع في أماكن سرية دون تحديد للمدة، عدا الحالات التي تنتظر الإعدام أو قرار رئيس النظام للبت في أمرهم، إن كل تلك الصـــور وغيرها مما عاشـــها العراقيون خلال العقود الثلاثة من حكم البعث وقائده المتأله صـــدام حســـين جعلت الناس في حالة قلق ورعب مستديم وكان المعارض للنظام يعرّض أهله وعشيرته لنقمة صدام وانتقـــامـــه. ولـــذلـــك كان الرعب وليس مجرد الخوف من النظام والناعقين له هو الحالة السائدة بين الشعب العراقي، ولا يمكن أن يتصور أحد أن هذا المارد العملاق والنظام الحديدي سينهار في يوم وليلة دون أن يدافع عنه أحد أو يأسف عليه أحد من أفراد الشعب الذي عانى كثيراً ودفع الثمن غالياً في وجود صدام كما أنه سيدفع الثمن أضـــعافاً مضـــاعفة بعد رحيله، لأن صدام لم يترك للبلد من يقوده، وإن الحرب والفوضى لم تترك هيكلاً أو مؤسسة يستند إليها من يريد القيادة بعده.أما العدل والعدالة في نظام صـــدام فليس لها أثر حقيقي بين الناس سوى الاسم والادعاء ، شأنها شأن الشورى والحريـــة التي تجـــدها فقط مكتوبة في أدبيات الحزب وفي دوائر وزارة العـــدل وغيرهـــا لغرض ترديدها على الأفواه كأنها عبارات صوفية غامضة ليس لها معنى إلا في قلب القائد الملهم ولا يجوز التوســـع في تفســـيرها، أما الظلم الذي هو نقيض العدل فقد كان متأصـــلا في الحياة في ظل حكم صـــدام حتى ظن المخلصون أن لا نجاة منه إلا بالموت أو الاستسلام له، وقديما قال بعض الفقهاء أن

الحياة في ظل حاكم كافر عادل أفضل من حياة في ظل حاكم مسلم ظالم، حتى غالى البعض في فهم ذلك إلى الدعوة إلى الاستسلام وهذا مما لا يقره الإسلام، ولكن العلماء أرادوا أن يحذروا من خطورة الظلم على العباد وانه قد يكون السبب الذي قدره الله أو سنته سبحانه لتسلط الكافر على بلاد الإسلام إذا كان أكثر عدلا من الحاكم المسلم، فهي دعوة لحكام المسلمين للتوبة والعودة عن غيهم وظلمهم للمسلمين، وليست دعوة للمسلمين للاستعانة بالكافر على المسلم أو تمني السقوط في أحضان المستعمرين والمحتلين، وشتان بين الفهمين.ومن صور الظلم الكثيرة التي ألفناها في عهد صدام أن الامتيازات والنعم والمسؤوليات والرئاسة والتصدر والرواتب العالية والمكافآت والإكراميات وما تسمى بهدايا المناسبات الشهرية كلها كانت حكرا على صدام وأهله وعشيرته وحزبه وأتباعه والناعقين له والمنافقين والمتزلفين ولو على حساب الأبرياء والضعفاء والمساكين من أبناء الشعب.حتى ساد الدجل والكذب والرشوة والمحسوبية وفقد الأمل بالعدل والعدالة، ومع ذلك على كل عراقي أن يقرّ بوجودها ويؤكد أهميتها في حياة العراق شأنها شأن ثلاثية حزب البعث (الوحدة والحرية والاشتراكية) التي حفظها الشعب منذ السبعينات ولكنه إلى الآن لم يفهم معناها، وقد فسّرتها أحدى عجائز العراق في السبعينات بأنها بنات البكر(الرئيس العراقي السابق)..! ومن صور الظلم قي

الوســـط الطلابي مثلا أن هنـــاك امتيـــازات عديدة عدا الامتيازات الخاصـــة بالمسؤولين والوزراء وحجز المقاعد في الكليات الراقية والمرغوبة كالطب والهندســـة، يســـمى امتياز إضافة الدرجات إلى المعدل لطلبة الصف المنتهي (السادس الإعدادي)، وهو عبارة عن إضـــافـــة خمس درجات على المعدل لكل طالب يكون والده حاملاً شـــارة الحزب أو عضواً كبيراً في الحزب أو عنده نوط شجاعة أو كان شهيدا في أم المعارك (حرب الكويت) أو قادسية صدام (حرب إيران) أو وزيرا أو آمرا في الجيش والحرس أو من أصدقاء صدام أو مدرســـا أو ...ولا يستغرب القاريء إذا علم أن المعدل قد يصل إلى ١١٥ من ١٠٠ بســـبب هذه الإضافات المجنونة الظالمة والتي اســـتمرأها الشعب وأصبح يستحل السحت والحرام والظلم، والتي أدت إلى انتشار الحقد والكره بين الطلبة والتنافس غير المشروع، حتى لتجد أن طالبا لديه معدل ١٠٠ من ١٠٠ بدون إضافة ولكنه لا يســـتطيع الحصـــول على كلية الطب أو الكلية التي يرغبها، ولا يختلف الأمر في الدراســـات العليا إن لم يكن أكثر ظلما وتمييزا، وربما هو أقذر من التمييز العنصري نفسه، لأن أهم الشروط لقبول الطلبـــة للدراســـات العليا أن يكون من عبّاد هبل أي يكون منتميا للحزب الحاكم ثم أن تقبله لجنة يرأسها نائب الرئيس عزة الدوري، وينبغي أن يكون مرغوبا فيه وأن تنطبق عليه شـــروط غاية في التعسف والتقييد ... وهكذا باقي مرافق الحياة.

في الحقيقة لا يمكن لأحد أن يصـــور حياة العراقيين في ظل النفاق والوصـــولية والنفعية التي كانت سائدة بين الناس لاسيما بين كبار الحزبيين والمســـؤولين في الدولة ومدى الكذب والدجل الذي كان يغرق قائد النظام ببحر من الخيال والأماني الزائفة عن قوة النظام وتلاحم الشعب معه، ولا يمكننا تصوير ذلك إلا كما صور لنا الكاتب الأمريكي اللاتيني في قصـــته الســـياسية (قصة ملابس الإمبراطور الجديدة) المشـــــهورة التي تصـــور الخداع المتبادل بين الدكتاتور وشـــعبه المســـتعبد بحيث كلاهما يصدق كذبته ولا يكشف ذلك إلا فطرة طفل صـــغير بريء وهو يرى الإمبراطور يمشي عارياً بدون ملابس بعد أن خدعه المحتالون والنفعيون في إحدى احتفالات العيد الوطني الكبير، فيصرخ في وجه أبيه قائلا: يا أبتي إن الإمبراطور يســـير عارياً... ولا يصـــور تلك الحالة التي عاشها الناس في ظل النظم الدكتاتورية الآسنة التي مرد الناس فيها على النفاق إلا قول الشـــاعر المصـــري الشهيد هاشم الرفاعي في قصيدته التي كانت بعنوان امرأة الشهيد تهدهد طفلها وهو يقول:

لم يبق مسموعاً سوى ... صوت النفاق

صوت الذين يقدسون الفرد من دون الإله

ويسبحون بحمده ...ويقدمون له الصلاة

لقد انشـــغل صدام في معظم فترة حكمه منذ عام ١٩٧٩ بالحروب والصراعات السياسية العنيفة المحلية والدولية التي كانت غالباً ما

تؤدي إلى الحروب المهلكة والمدمرة، فكانت حرب إيران قد غطت معظم عقــد الثمــانينات، ثم جاءت حرب الكويت وهزيمة الجيش المرّة على يــد التحالف الثلاثيني بقيادة بوش الأب الذي كان أكثر حكمة من ولده، ولم يســمح بســقوط صدام الذي كان وشيكاً بعد انتهاء الحرب مباشرةً، واكتفى بتوقيعه على الحصار وعلى تنازلات مرعبة على حســاب الشعب لصالح الأمريكان، وتجرع الشعب في ســنين الحصــار العجاف أشكال العذاب والذل لكي يبقى صدام في ســدة الحكم، ويستفيد الأمريكان والصهاينة من حصار لا يبرره إلا بقاء صدام في الحكم، وقد انشغل صدام خلال سنين الحصار ببناء الجوامع الضــخمة والقصور الرئاسية المترامية والصروح الكبيرة المخلــدة لعهــده، وبالحملة الإيمانية الكبرى التي كان يقودها في الغالب أذناب النظام المنافقون في الجوامع والمدارس، لذلك لم تثمر عن شئ كبير ولم يباركها الله سبحانه إلا في أماكن محدودة وببركة وصدق القلة القليلة التي أخلصت النية ولم يعــــقها لغو العابثين والفاسقين.

بعد أن قام المســتشار العلمي للرئيس صدام الدكتور عامر السعدي بتســليم نفســه إلى قوات التحالف يوم السبت ١٣/ ٤، تم اعتقال وطبان إبراهيم وبرزان إبراهيم التكريتي أخوة الرئيس العراقي غير الأشقاء، والدكتور جعفر ضياء جعفر رئيس الطاقة الذرية العراقية، والــدكتور همــام عبــد الخالق وزير التعليم العالي، ومحمد حمزة

الزبيدي عضو القيادة في حزب البعث يوم ٢٠/٤، والدكتور محمد مهدي صـــالح وزير التجارة والدكتور حكمت العزاوي وزير المالية في ٢٣/٤، وطــارق عزيز نائب رئيس الوزراء والشـــخصـــية الإعلامية والســياسية المهمة في عهد صدام وعهد البكر الذي تم اعتقاله في يوم ٢٥/٤، والدكتور عامر رشــيد العبيدي الذي سلم نفســه في يوم ٢٨/٤ ومزبان خضر هادي عضو قيادة في الحزب وقائد منطقة الفرات الأوســط والمهندس عبد التواب ملا حويش وزير التصــنيع العســكري وطه محيي الدين معروف نائب رئيس الجمهورية يوم ١/٥، ليصـــبح عدد المطلوبين للمحاكمة كمجرمي حرب ٤٣ شــخصـــاً من أصل ٥٥ شخصا في القائمة التي أعلنتها قيادة قوات التحالف الأمريكي البريطاني، على رأسهم صدام حسين ونجلاه وعــدد آخر من الوزراء والمســـؤولين في النظام العراقي المنــدحر في الحرب. ومن بين هؤلاء العالمة البايولوجية الدكتورة هدى صـــالح مهدي عماش التي يحلو للإعلام الأمريكي أن يطلق عليها أسم سيدة الجمرة الخبيثة، والعالمة رحاب زوجة وزير النفط الســـابق د. عامر رشــيد العبيدي، والتي أطلقوا عليها اسم السيدة الجرثوميـــة، والمفارقة الغريبة في هذا الإعلام المخادع والمتحيز إنهم يحاولون الإيحاء بأن العراق يجب أن يكون فيه أســـلحة دمار بايولوجية وجرثومية ونووية لوجود هؤلاء العلماء فيه، متناســـين الكم الهائل لأمثال هؤلاء العلماء في كافة الدول وعلى رأسها أمريكا

وإسرائيل، وإن الآلاف منهم يعملون بشكل علني وسري في مراكز الأبحاث التابعة لوكالة المخابرات الأمريكية CIA والبنتاگون وغيرها من المؤسسات العسكرية والإستخباراتية الأمريكية دون أن يستطيع أحد الإشــارة إلى انتهاكات الولايات المتحدة في قضــايا استخدام أســلحة الدمار الشامل واليورانيوم المنضب والقنابل المحرمة في الحرب (حرب الخليج الثانية ســنة ١٩٩١) وفي يوغسلافيا (في إقليم كوسوفو) وفي أفغانستان وحاليا في الحرب على العراق. وإن استخدام القنابل النووية التكتيكية في الرضوانية والمطار والأسلحة المحرمة الأخرى كالمنفلقة العنقودية والمايكروويفية والصــــوتية والثقيلـــة (١٠ طن) وغيرهـــا على المناطق المدنية والخدمية في الناصـــرية والزبير والســـماوة والفلوجة وبغداد في أحياء الفرات والدورة والسيدية والشعب والتاجي والمنصور والقصر الجمهوري والزعفرانية والنهروان وغيرها، والتي رفعت عدد الشـــهداء إلى أكثر من ١٠٠ ألف شـــهيد كان أكثر من نصـــفهم قد قضـــى بهذه الأســـلحـــة المحرمـــة، وعدد كبير منهم من المدنيين العزل، وفي المقابل ٢٠ ألف قتيل استطاع العراقيون جدع أنوفهم من الأمريكان والإنكليز بأســـلحتهم التقليدية والعمليات الإستشهادية البطولية في الصـــحراء الغربية والجنوبية وعلى أســـوار المدن العراقية وفي مواجهة الطائرات والســـمتيات التي أسقطت بالنيران العراقية خلال الأســـابيع الثلاثة من الحرب المشّـــرفة التي خاضها العراق، رغم

الخلل والثغرات الإدارية والفنية والعســـكرية التي كان يعاني منها العراق بســـبب قيادته الحالمة الجاهلة بأصـــول الحرب وســـننها ومتطلباتها، ورغم خيانة النفعيين والوصـــوليين من أفراد الحزب الحاكم وضعاف النفوس من البطانة المحيطة بصدام، والتي أوهنها الترف والإمتيازات والســـلطة والترفع عن خدمة الشـــعب، فجعلها تغلظ الأيمان لقائدها بأنها ســـتكون ســـداً منيعاً وعنواناً للتضحية والشهادة، ولكنها بقيت كلمات جوفاء لم تصمد في المحك فانهزمت وتبخرت ســـاعة التحدي الجاد، تاركة الشعب والجيش وحده يقاتل قتـــال الأبطـــال، فكانت في مقدمة المنهزمين والواقعين تحت مظلة الإعلام المخادع والحرب النفســـية الإعلامية لترويع البلد وتدمير روحه المعنوية وتصـــديه الشـــجاع لقوات الاحتلال، فكان صدام قد اعترف بخيانة حزبه ونكلهم عن أيمانهم قبل رحيله من حكم العراق ليلـــة الأربعاء ٩/ ٤، ليثبت للتاريخ تلك الحقيقة المؤلمة التي لابد لكل فرعون وطاغية أن يراها في نهاية حكمه وسلطته الكهنوتية، كمـــا قالها فرعون موســـــى قبيل غرقه، وقد ســـبق قدر الله ذلك الاعتراف بأن القوة لله جميعاً، وأن مبادئ الأحزاب الوضـــعية إنما تذهب هباءاً في ســـاعة التحدي وحين تحين ســـاعة السنن الإلهية ولن تجد لسنة الله تحويلا ولا تبديلا، ولسان الحال يقول ليت صدام قـــد أدرك ذلـــك قبل نفاذ القدر وقبل ذلك الدمار الذي حل بالعراق

بسبب الطغيان والظلم العام وهو الآن يرزح تحت الاحتلال الذي لا نعلم متى ينتهي أمده.

لقد كان من مظاهر حكم صـــدام في العراق خلال العشـــرين ســـنة الماضـــية من الحكم الاســـتبدادي، أن كل شيء في العراق قديمه وجديده يسمى باسم صدام وكل إنجاز أو عمل جديد يمكن أن يخدم الشعب سواء زيادة راتب أو بناء سد أو إنشاء طريق أو حفر نهر كلها كانت تعد مكارم من القائد إلى الشعب، بل من الطريف والمعتاد أن نسمع بقرار أنه مكرمة القائد ثم يلغى ويعد إلغائه مكرمة القائد أيضا، سواء كان القرار سياسياً أو اقتصادياً أو اجتماعياً كما حدث في تشـــريعات المرور والعفو عن الســـجناء وغيرها من القرارات الكبيرة والصغيرة، وكذلك في كل نشاط من النشاطات العامة في أي وزارة من وزاراته التي كانت في الحقيقة ليست وزارات ولا وزراء وإنما مكاتب ســـكرتارية تابعة إلى ديوان الرئاســـة ومجلس قيادة الثورة والحزب الذي يحكمه القائد الأوحد.

لقد تم تغيير أسماء أحياء ومستشفيات وجامعات ومدارس ومكتبات ومتاحف في طول العراق وعرضـــه كلها إلى اســـم صدام، فمدينة الثورة في بغـــداد التي بناها الرئيس العراقي الأســـبق عبد الكريم قاسم أصبح اسمها مدينة صدام، ومستشفى مدينة الطب التي بنيت بعد ثورة ١٩٥٨ أصـــبح اسمها مدينة صدام الطبية، وكذلك جامعة صدام الإسلامية وجامعة صدام للعلوم والهندسة وكلية صدام الطبية

وكلية صـــدام للحقوق وكلية صـــدام العسكرية وغيرها كثير، ومن المدن والســـدود صدامية الكرخ وهي حي سوق حمادة القديم في منطقة الكرخ، وســـد صـــدام في الموصـــل وصـــدامية الثرثار في ســـامراء وقصـــور صـــدام الكثيرة الفخمة التي اضطر أن يسميها قصـــور الشـــعب بسبب ضغط الإعلام الأمريكي أثناء التفتيش على الأسلحة من قبل لجان الأمم المتحدة في نهاية التسعينات، وصدامية الفلوجة قرب بحيرة الحبانية وصـــدامية البصـــرة وبابل والموصل والأنبار وغيرها من المحافظات والمدن الكبيرة والصـــغيرة، فقد دخل اســـم صدام في كل متر وحجر من أرض العراق حتى العملة العراقية لم تســـلم من صـــورة صـــدام، بعد أن تدهورت بعد حرب الكويت بشـــكل كبير جداً، فمن قيمتها في الثمانينات الدينار يساوي دولار أو أقل أو أكثر قليلاً إلى أن وصلت في عام ١٩٩٥، الدولار يســـاوي ٣٠٠٠ دينار، أي وصـــل تضخم سعر الدينار إلى عشرة آلاف ضـــعف للســـعر الرسمي للدولار (دينار واحد يساوي ٣,٣٢ دولار) والطريف أن رواتـــب الموظفين بقيـــت على حـــالها تقريباً بالدينار، أي إن معدل راتب الموظفين خلال فترة الحصـــــار لم يكن يزيد على خمســـة دولارات عدا أصحاب الامتيازات والمقربين من النظام وقيادات الحزب، فعاش الناس في فقر شـــديد وفي عالم كله يدور حول صدام وصوره، حتى كان الداغستانيون حين يأتون للحج ويجلبون بضـــــاعـــة إلى بغداد، يعبّرون عن قيمة الحاجة بكلمة ٧

صـــدام أو كذا صدام ويقصدون بصدام فئة ٢٥٠ دينار إشارةً إلى صورته في العملة، بل إن العراق أصبح اسمه عراق صدام، وعالم صدام وعهده المنير سماه بعض الإعلاميين العراقيين السائرين في ركاب الآلات التي يســوسها صدام ونظامه، بأن العراق العظيم هو كوكب صدام، ولا أدري هل قصد هؤلاء أن هذا الكوكب الذي يحكمه صـــدام هو الأرض كلها، أم أن العراق أصبح يمثل كوكب الأرض، وإنـــه لا قيمـــة اعتبارية لمن حوله ســـواء في العالم العربي أو الإسلامي أو العالم بأسره، لقد كان صدام أسير خياله الخاص كأي دكتاتور سبقه من أيام أتاتورك وهتلر وستالين وغيرهم من الأصنام والفراعنة الذين ألهوا أنفسهم وأرادوا من شعـوبهم أن يـــعبدوهم من دون الله قـــال تعـــالى: [قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد]. (سورة غافر/٢٩)، وقال تعالى يصف الشعب الذي استعبده فرعون: (فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين).

لقد استفاق صدام بعد الهزيمة فوجد أنه لم يقاتل معه الموالون له والمنتفعون من حزبه وأعوانه الذين كانوا يصـــفقون له ويبطشون بالناس، وإنما قاتل الشـــعب صـــاحب القضـــية المؤمن بربه وبلده والرافض للاحتلال الأجنبي مهما كلف ذلك من تضـــحيات، فقالها صدام في كلمته الأخيرة بمرارة دون أن يستطيع أن يغير من الواقع

الجديد والهزيمة النكراء لنظامه وحزبه، ودون أن ينقذ ملكه العظيم من الضياع أو بلده الذي أحبه من الاحتلال البغيض.

ومن مظاهر تأليه صدام لنفسه واستخفافه بشعبه واستعبادهم، كثرة التماثيل والأصنام والنصب والصور المنتشرة في الشوارع والدوائر والشركات والبيوت بشكل مفرط وغير معقول، فهناك مئات الصور الكبيرة في كل مدينة من مدن العراق بل في كل حي ومحلة أحيانا، ففي كل فلكة وساحة توجد صورة أو صورتان، وفي أبواب مقرات الحزب وأبواب الشـــركات والمنشآت والدوائر الحكومية والأهلية، وفي باب النظام لكل وحدة عسكرية، وكذلك داخل الأزقة والأسواق والمنتـــديات وغيرها، كما أن التماثيل قد كثرت بشـــكل مفرط في الســـنين الأخيرة في المدن العراقية، بســـبب التقليد المتزايد الذي شـــجّعه وفرضه الحزب على منتسبيه وعلى المسؤولين في دوائر الدولة وهم من أعضاء الحزب بداهة، لأنه لا يمكن لأي عراقي أن يكون مسؤولا في الدولة إلا إذا كان من أعضاء الحزب الحاكم، بل وصـــل الأمر أن التحزب فرض على طلاب المدارس بشكل جماعي وإجباري حتى وصل إلى طلاب السادس الابتدائي للأطفال بعمر ١٢ ســـنة، فضـــلا عن المنهج الحزبي وسيرة القائد التي فرضت على جميع مراحل الدراسة من الابتدائية حتى الجامعة ضمن المادة التي تســـمى الثقافة القومية. وكان من أدبيات هذا التقليد الحزبي عند إقامة احتفاليات في الوزارات والمؤسسات والدوائر والفرق الحزبية

أن يكون أهم فقرات هــذه الاحتفالية هو افتتاح صـــورة كبيرة أو تمثال لصـــدام في مداخل المدن والوزارات والشـــركات وغيرها، وكانت أهم المناســبات التي تُســتغل لافتتاح صورة أو تمثال هي مناســبة ميلاد القائد في ٢٨/نيســان وميلاد الحزب ٧/ نيســان وثورات تموز العديدة وهي ثورة ١٤/تموز و ثورة ١٧-٣٠/ تموز التي جاءت بحزب البعث إلى السلطة عام ١٩٦٨، ومناسبة توقف الحرب العراقية الإيرانية في ٨/ آب وغيرها من المناســبات التي اختلقها وأعتمدها الحزب لتمجيد تاريخه ونضاله. أما أسماء وألقاب القائد فقد وصلت إلى تسعة وتسعين اسما بما يشابه ويقابل أسماء الله الحسنى. وللتاريخ يمكن أن نقول إن صدام لم يكن يأمر بنفسه بهذه الأفعال النفاقية والوصــولية التي تمجد صدام وتقدسه، وإنما هو سياق تلقائي يسير عليه كل شعب يملكه حاكم دكتاتور كما حدث في مصر في عهد عبد الناصر وتيتو في يوغسلافيا وجاوجسكو في رومانيا وقبلهم هتلر في ألمانيا وســتالين في روســيا، فإن تلك المظاهر الســلبية تنمو وتزدهر في جو من التناغم والتوافق بين الحاكم الإله المحب للتمجيد والشــعب المستعبد المغلوب على أمره الذي مسخه الاستبداد والاستعباد.

الانفلات الأمني وأعمال السلب والنهب

في صبيحة يوم الجمعة ١١/ ٤ وبعد انتهاء آخر المعارك في بغداد وهي معركة الأعظمية، وبعد ظهر هذا اليوم الذي لم تصلَّ فيه صلاة الجمعة لعدم وجود دولة أو إمام كما هو رأي أبي حنيفة وغيره، خرجت بعد الظهر- بعد الهدوء النسبي للقصف- وتوجهت باتجاه المقبرة الملكية وكنت قد سمعت عن بدء أعمال السلب والنهب في الدوائر الحكومية والمباني والمؤسسات العامة، ففوجئت بوجود عشرات السيارات بجوار جامعة صدام للعلوم الإسلامية، والتي تقع قرب المقبرة الملكية في الأعظمية وكانت أبواب الجامعة مفتّحة، والسرّاق يتسابقون على نهب ما فيها من أجهزة ومعدات وحاسبات ومكيفات وأجهزة كهربائية ولم يتركوا حتى الأخشاب والأوراق والوثائق، وحينما وقفت أمام الجامعة في الشارع المقابل لها، كدت أتقيأ من شدة الصدمة وعيني تدمع من هذه المناظر المخزية التي يندى لها الجبين، وتدعو إلى الازدراء والوجل من الحالة التي وصلنا إليها بعد اختفاء الدولة وسقوط الحزب والنظام. فمهما جال وابتعد بنا الخيال وافترضنا ما يمكن أن يصيبنا نتيجة هذا الغزو والعدوان لا يمكن أن نتخيل ما حصل من أعمال قرصنة وسرقة وتدمير لاسيما في الأيام الثلاثة التالية، بل حتى نهاية الأسبوع.

كان الذهول واليأس والإحباط الذي ســـيطر علينا من تلك الأعمال المشينة قد أقعدني عن الحركة في يوم السبت فمكثت في الأعظمية مع بعض الإخوة نتواصـــى بحفظ الأمن في المحلة والمســـتشـــفى القريبة منا وهي مســـتشفى النعمان والجوامع المحيطة بنا، وأثناء تشكيل لجان من المتطوعين والخفراء لحماية المستشفى والمنطقة قام مجموعة من الوجهاء والأســـاتذة في الأعظمية ومعظم أحياء بغداد بالتواصي لتوجيه نداءات إلى الناس، وفي حدود منطقتنا قمنا بتوجيه نداء عاجل لوقف أعمال الســـلب والنهب والتصـــدي لها والدعوة لتشـــكيل لجان محلية مســـلحة لحماية المناطق والدوائر والمســـتشـــفيات والجامعات، بعد أن سمعنا أن عدداً من الجامعات والمكتبات والمســـتشـــفيات والمصـــارف قد سرقت وأحرقت، وقد دعاني أحد هؤلاء الأساتذة للاشتراك في هذا العمل العاجل الذي قد يؤدي إلى نوع من المعالجة وملء الفراغ الأمني الذي أحدثه تبخر النظام وأجهزته بشكل سريع ومفاجئ.

وأدناه نص هذا النداء الذي صدر يوم السبت ١٢/ ٤، وتم توزيعه إلى الناس في الأماكن العامة والجوامع يوم الأحد ١٣/ ٤.

نداء عاجل إلى الرأي العراقي والعربي والإنساني

" أوقفوا عمليـــات تـــدمير العراق الجـــارية تحت أنظار قوات الاحتلال الأجنبي وبتشجيع منه "

إننا معشر العراقيين بعد الحروب المدمرة وحصار اقتصادي وعلمي وإنساني امتد لأكثر من عشر سنوات، ما عاد أمامنا من نتَّجه إليه سوى الله سبحانه وتعالى، وأبناء شعبنا إزاء المحنة الجديدة التي سببها تغييب الشعب ومصادرة حكومة الحزب الواحد لكل حقوق شعبنا المدنية ومنها حقوق أعضاء الحزب الواحد ذاته.

إن المحتلين الجدد للعراق والذين جاءوا باسم الحرية والديمقراطية أخذوا يكشفون حقيقة نواياهم – وعلى لسان رامسفيلد وولفتز وبلير – بتعريف الحرية بأنها حرية النهب والسلب، إنها حرية السرّاق والمجرمين وقطاع الطرق.

إنما يجري في بغداد ومعظم المدن العراقية الأخرى من حوادث نهب وسلب وقتل إنما يعيد إلى الأذهان أبشع صور الغزو التتري الذي قاده هولاكو، حيث بدأ الاستعمار والغزو الأنكلوأمريكي للعراق يصب جام غضبه وحقده على شعب العراق ومستشفياته وجامعاته ومتاحفه ومكتباته. إنه الحقد الصهيوني الهادف إلى تدمير حاضر العراق ومستقبله، بل وتراثه الحضاري أيضاً.

فقادة الغزو لا يخفون ميولهم الصهيونية، كما أن ممارساتهم الحاقدة لا تدع مجالاً للشك في نزعتهم الصهيونية الساعية إلى تدمير كل شيء في العراق من خلال عملية خداع كبرى يسهلها التخاذل المشين للحكام العرب، حيث يجري الحديث عن حل للقضية

الفلسطينية بعدما يتم تصفية العراق، ولا ندري كيف تكون عملية صهينة العراق وتدميره طريقاً للدولة الفلسطينية المزعومة.

أيها الأخوة.. إن عصابات السلب والنهب والحرق هي في معظمها صدرت من جهات جرى تنظيمها من قبل وكالات مخابرات أمريكية وإنكليزية وصهيونية، ومع الأسف، عربية أيضاً. بالإضافة إلى التواطؤ الصارخ من قبل قوى الاحتلال الأجنبي ومساعدتهم العملية للغوغاء والسرّاق. ففي حالات كثيرة جرى تفجير مداخل بعض البنايات الحكومية من قبل قوات الاحتلال وإفساح المجال أمام الرعاع لاقتحام هذه المباني كما حدث لبناية البنك المركزي العراقي وبناية الجامعة التكنولوجية والجامعة المستنصرية، مثلما يتم نهب المستشفيات والدوائر الخدمية أمام أنظار قوات الاحتلال الأجنبي.

يا معشر العراقيين.. ما عاد لكم من نصير سوى الله جلت قدرته، والارتكاز إلى شجاعتكم وتكاتفكم وتضامنكم أمام هذه الهجمة البربرية.. وإننا ندعوكم وعلى الفور إلى:-

١. تشكيل الجان محلية مسلحة لحماية كل منطقة وحي وشارع بالاعتماد على قواكم الذاتية، وعدم التردد في إطلاق النار على عصابات السلب والنهب. صونوا الدوائر العامة والمتاجر والبيوت من أي اعتداء.

٢. تشكيل لجان لحماية الجامعات والمستشفيات والمؤسسات العامة من عمليات الحرق والتدمير.

٣. صادروا الأموال المسروقة بالقوة، وليتم إيداعها في المساجد والحسينيات تمهيداً لإعادتها إلى أصحابها الشرعيين.

٤. فليتجمع أبناء الشعب في المساجد والحسينيات والكنائس للعمل على التنسيق والتكاثف وتشكيل لجان الإدارية المحلية المنبثقة من الشعب وليس من جهات الاحتلال الأجنبي.

يا معشـــر العراقيين.. لقد بدأت الصـــفحة الثانية من عمليات تخريب العراق بمحاولات إثارة الفتنة الطائفية، ولكن هذه الصفحة إنما تصـــطدم بالوحدة الوطنية الواثقة وخاصـــة بين أبناء الســـنة والشـــيعـــة. ومع ذلـــك يجب اتخاذ أعلى أشـــكال الحذر من هذه المؤامرات والتصدي لها.

وتذكروا أن الشيعة والسنة جميعاً إنما يؤمنون بإله واحد وهو الله جلت قدرته وبرسول واحد عليه الصلاة والسلام، وبقرآن واحد وبســـنة نبوية شريفة تجمعنا على كلمة سواء. فاتحدوا وتماسكوا ودافعوا ســـوية عن العراق وعن ممتلكات وحياة أخوتنا المسيحيين ســـواء بسواء والحذر الحذر من الفتن. أما الحكام العرب فلا نريد منهم لا دواءً ولا غذاءً، فثروات العراق التي نهلوا منها جميعا تكفي شـــعبنا وأمتنا. إن أجهزة القمع ومصـــــادرة الحريات قد فرّت من الساحة لحظة الحاجة إليها وتحاول الآن العودة عن طريق استعطاف قوات الغزو والاحتلال، فالانتهازيون والوصـــــوليون لا يملكون أي مبدأ سوى التسلط والاستغلال.

عــاش العراق.. عاشــــت الوحدة الوطنية.. عاشــــت الوحدة الإسلامية.. خـــالدة أبداً ألأخوة العربية– الكردية – التركمانية.. إلى الأمام من أجل لجان الحماية الشعبية الذاتية تمهيدا لطرد المحتلين الغزاة.

د. طـــاهر البـكـــاء/ أســتـــاذ جامــعـــي

عـــلاء الديـــن المدرس/ مفــكـــر إســـلامي

د. عبــد اللطيف الميـــاح/ أســتـــاذ جامعي

د. وميــض جمال عمر نظمي/ مفكر قومي

محمد الشواف/ عضو رابطة العراق الموحد

د. ظـــافر العـــانـــي/ بـــاحث أكـــاديـــمي

وكان أقدم وأهم شـــخص قام بصـــياغة النداء هو د.وميض جمال، وهو مفكر قومي في منتصف الستين من العمر تقريبا ولم أسمع به ســـابقا ولم أعرفه إلا في ذلك اليوم –رغم شـــهرته– بســـبب جو الاســـتبداد في عصر صدام، وقد وجدته رجلا حكيما هادئا مخلصا لوطنه متواضـــعا دمث الأخلاق، أما باقي الأشـــخاص الذين صدر النداء بأسمائهم فلم أعرف منهم غير الأخ ظافر العاني وهو أستاذ في كلية العلوم السياسية في جامعة بغداد.

في مساء السبت سمعنا من الإذاعات الأجنبية أن مستشفى الكندي ومســـتشـــفى اليرموك قد نهبت من قبل الغوغاء وكذلك الجامعة المستنصرية والبنك المركزي العراقي والمتحف العراقي وقد أكدت

إذاعة الـــــBBC إن سرقة المتحف في بغداد تعد من أفدح الخسائر التي تعرض لهـا شـــعـب العراق، والمتحف العراقي وهو ثروة حضـــاريـــة وتراثية لأعظم المتاحف في العالم، حيث تقدر قيمته بعشرات المليارات من الدولارات، وأن عدد القطع الأثرية المنهوبة تزيد عن ٢٠٠ ألف قطعة، منها لوحة بانوراما تصـــور سجود ملك يهوذا مع ثلاثة آلاف يهودي من يهود السبي البابلي أمام ملك بابل نبوخـــذنصــــر(*) ولُقى ورقم طينية وتحف أثرية تعود إلى ما قبل خمســـة آلاف سنة. كما سرق متحف الآثار في الموصل أيضا وهو لا يقل أهمية عن متحف بغداد وفيه أكثر من ١٠٠ ألف قطعة أثرية تخص الإمبراطورية الآشـــورية التي حكمت العالم من نينوى قبل ثلاثة ألاف ســـنة. فما كان منا في صباح اليوم التالي الأحد ٤/١٣ أن هرعنا أنا ونســـيبي د. محمد الأعظمي أســـتاذ الآثار في كلية الآداب/ جامعة بغداد مع صديق ثالث إلى المتحف العراقي للإطلاع على ما حصـــل في أعظم ســـرقة في تاريخ العراق- وقد وصـــلنا بحدود الساعة العاشرة صباحاً ووجدنا بعض الموظفين والمتطوعين لحراسة المتحف بعد سرقته، ولم يفتحوا باب المتحف لنا إلا بعد أن

(*) ســـألت أحد المختصـــين في الآثار عن هذه اللوحة فأجاب بأن اللوحة الموجودة في المتحف العراقي غير أصـــلية، وإن اللوحة الأصلية موجودة حالياً في المتحف البريطاني، غير أنـــه أكد وجود لوحات وآثار أخرى تخص الســـبي البابلي وهي من ضـــمن الآثار المسروقة في عمليات نهب المتاحف التي جرت بعد سقوط بغداد.

تأكدوا أننا جئنا للدفاع عن المـــــتـــحــــف ومعــنا الأخ مــحمد الأعظمي- أستاذ الآثار- وقمنا بجولة في قاعات المتحف وأروقته، وليتنـــا لم نقم بتلك الجولة الحزينة، لقد كانت شـــديدة الألم على أنفسنا، أن نرى تراثنا وتاريخنا يسرق بهذا الشكل البربري الهمجي الإجرامي، ولقد كانت أعمال السلب والنهب في معظم الأماكن التي طالها النهب، وفي مقدمتها المتاحف والمصارف والمخازن واضحة التدبير والتخطيط في تسهيل تلك الأعمال ومساعدة هؤلاء الغوغاء لسرقة البلد وثروته وتاريخه ووثائقه ومكتباته، لم تكن هذه الأعمال عشـــوائية مطلقاً، وهناك شواهد كثيرة وشهود عيان على أن هذه الجرائم كـــانـــت مـــدبرة وكـــانـــت تحدث تحت أذن وعيون الغزاة وبتشـــجيعهم ومســـاعدتهم، فقد كان السرّاق محترفين وكان معهم معدات متخصصة للسلب والنهب، فقد وجدنا قطعاً حديدية كبيرة في أحدى قاعات المتحف تستخدم للتهديم والكسر والتدمير، وقد وجدنا بعض القاعات تم الدخول إليها من الجدران بعد إحداث فتحة كبيرة فيها وليس من الأبواب، وقد وجدنا أيضـــا ان الكثير من الحاويات الزجـــاجية الفارغة والتي تم إخلاء محتوياتها قبل الحرب قد دمرت عمـــدا دون ســـبـــب، كما أن الكثير من المباني والدوائر الخدمية والتوثيقية والمخازن والجامعات والمكتبات قد أحرقت بالكامل دون أن يســرق منها شـــيء، وقد تجولت بنفسي وبسيارتي في معظم أنحاء بغداد في الأيام الثلاثة الأحد والاثنين والثلاثاء للوقوف على

أعمـــال الســـلب والنهب والتدمير المتعمد لمفردات البلد ومرافقه العامة، فوجدت الأصـــابع الخفية واضـــحة بينه. فحينما تمرّ على المخازن الضخمة المختلفة الأنواع على جانبي الطريق السريع في الرصـــافة تجد النار تلتهمها دون وجود سرّاق أو عابثين قربها، كما أن المكتبة الوطنية ودار الكتب والوثائق في باب المعظم ومكتبة وزارة الأوقاف النادرة الثمينة في وســـط بغداد قد احترقت بأكملها، وليس هناك الآن في زحمة الحرب والتدمير من يريد سرقة الكتب ونـهبهـــا، وإنمـــا المطلوب تـــدميرهـــا ليس إلا، وكـــذا الجـــامعة المســـتنصـــرية وكلية الآداب في الوزيرية وأما البنك المركزي فقد حدثني أحد الثقات- وهو أبو مصطفى- أنه شاهد بأم عينه أن البنك المركزي قبل أن يســـرق قد ضـــربت بابه المحصنة بالقاذفات دون جدوى، مما أدى بقوات الاحتلال أن يجهزوا السرّاق بقنابل خاصة لتـــدمير البـــاب، وبعـــد فتح الباب دخل عدد من الجنود الأمريكان فسرقوا كمية من الدولارات تصل إلى نصف مليون دولار تقريباً، ثم تركوا الباب مفتوحا لنهبه وإخلائه. والأمر نفسه حدث مع الجامعة التكنولوجيـــة حيـــث دخلت قوات التحالف المشـــين حرم الجامعة وكســـرت الباب الرئيســـية بالدروع وأخذت تتجول داخل شـــوارع الجامعة ثم تركتها للنهب والســـلب، وكان ذلك يوم الأحد ٤/١٣. والأمر نفســـه في مراكز الشـــرطة والمرور حيث ســـرق الغوغاء الوثائق والأوراق التي تخص السنويات التي تحدد ملكية السيارات

لكي يتسنى لهم عمل سنويات للسيارات التي تمت سرقتها لتصبح ملكا للسرّاق والمجرمين. وحدّثني شاهد عيان ثقة انه تمت سرقة المتحف العراقي بعد دخول الأمريكان بسيارة نقل إلى ساحة المتحف وفتح باب السور لكي يتسنى للسرّاق المحترفين سرقته، وقد رأيت مكتبة المتحف قد سرقت أيضا وهي تضم نوادر الكتب والمصادر والمراجع الأثرية.(*) إنه أمر دُبّر بليل وظلام كما يقال،

(*) من المعروف أن العراق هو أقدم حضارة في التاريخ وأن حضارته وتراثه ومضمون جميع التحف الآثارية والرقم المسمارية قد ترجم وكتب بجميع اللغات العالمية منذ مدة طويلة تزيد على القرن، لذا فإن بعض المحللين والمتخصصين لا يعطون أهمية كبيرة لعملية نهب المتاحف وأثراً فاعلاً في إثبات دور العراق الحضاري، ولا يعدو أثر هذه الجريمة عن كونها عملية قرصنة وسرقة لتحف ثمينة من الزاوية المادية، وإن التركيز الإعلامي على ذلك هو من إيحاء الحضارة الغربية للتقليل من شأن الحضارة الإسلامية، والتي تبلورت الآن بشكل مجسم في عقول ملايين المسلمين، وهي مستعدة للظهور في كل حين عندما يزال الغبش عنها، وهذا ما حصل حين تحطم الطاغوت وحزبه وظهرت آثار الحضارة الإسلامية والأخلاق التي تصدت للعدوان، ولن يتمكن الخداع والتزييف الإعلامي من طمسها مهما حاول الطغاة قال تعالى: [يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون] (سورة التوبة/٣٢) ولعل عدم اهتمام المسلمين بالبحث عن الآثار وإقامة المتاحف لها يبين لنا إحدى النقاط التي تميز الحضارة الإسلامية عن غيرها، وإنهم أقاموا حضارتهم وسجلوا تاريخهم للبشرية دون الإلتفات إلى الوراء مستنيرين بقوله تعالى: [أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمّر الله عليهم وللكافرين أمثالها] (سورة محمد/ ١٠) ولذلك سجلوا تاريخ الأمم والملوك والرسل من خلال نصوص القرآن والسنة، كما فعل المؤرخون وعلماء السير والأخبار أمثال الطبري وابن الأثير وابن كثير وابن الجوزي وغيرهم. ومع ذلك فإن علم الآثار اليوم ومفرداته من

وقـــد حـــدثني هـــذا الصـــــديق عن بعض قـــادة القوات الأمريكية المتواجدين في فندق مريديان، إن احتلال بغداد وما جرى بعده من أعمال السـلب والنهب كانت برغبة وتنسيق مع عملائهم وحلفائهم من الإســـرائيليين وبعض العرب، فقـــد دخـــل بغـــداد مع قوات الغزو ١٠٠٠ قناص خليجي و ٧٠٠ شخص من الموساد الإسرائيلي و٥٠٠ شخص من أنصار حزب الكتائب اللبناني الموالي لإسرائيل مع عـــدد من الجواســـيس العراقيين، والعهدة في هذا الخبر على الناقل وأظنه دقيقا في نقله عن الأمريكان. وقد رأيت أمس الاثنين ٤/١٤ وأنا أمرّ من أمام فندق مريديان والقوات الأمريكية التي تقف أمام الفندق، أن أكثر من مائة شـــخص من الغوغاء قد جاءوا من جهـــة الفنـــدق وتحديداً من وســـط تمركز القوات الأمريكية وهم يهجمون على الدائرة الحكومية المقابلة للفندق والمحاذية لســـاحة الفردوس المطلـــة على الفنـــدق ومعهم عـــدد من المصـــورين والصـــحفيين، وقـــد كســـروا الأبواب ودخلوا كالأوباش ونهبوها والكاميرات تصورهم في محاولة لإيهام الرأي العام العالمي بأن هذه هي أخلاق الشـــعب العراقي، لتشويه صورته والانتقام من تصديه البطولي، وتشـــويه صورة العرب والمسلمين في العالم، ولكن حبل الكذب قصـــير، وسيرى الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. كما رأيت

الرقم والتحف والآثار هو أحد روافد المعرفة التاريخية وسجل الأمم والشعوب المستخرج من باطن الأرض شأن غيره من الكنوز.

بنفســـي كيف أن الأمريكان كانوا يحرســـون وزارة النفط في بغداد ومؤســـســـاتها، وكذلك كنيســـة في الكرادة، ولكنهم تركوا السفارة الألمانية عرضـــة للنهب وكذا الروســـية والفرنسية، إنها مفارقات وعجائب وصور بربرية لأعظم حضارة تدّعيها أمريكا. إنهم يدعون تحرير شـــعب العراق ولعابهم يســـيل على نفطه، حيث إن أهم ما قاموا به في الجنوب والشـــمال هو الاســـتيلاء على ٦٠٠ بئر بين البصـــرة والناصـــرية وهي حقول الرميلة ومجنون و٤٠٠ بئر في كركوك والموصل، أما البلد وبنيته التحتية ونظامه ودولته فلتذهب إلى الجحيم، هؤلاء هم أصـــحاب الحضـــارة الحالية ودعاة العولمة والمدافعون عن حقوق الإنســـان والحرية والديمقراطية. هذه هي الصـــورة القريبة من الحقيقة المرّة التي عاشها العراق بعد الغزو البربري وأحداث الســـلب والنهب المتعمدة والمنظمة، إننا لا ندعي أن العراقيين كلهم صـــالحون وأوليـــاء وليس فيهم ســـرّاق أو مجرمون، لكن السلب والنهب في عفويته وحجمه الطبيعي لا يدمّر بلدا كبيرا كالعراق، كما إن السيطرة عليه أمر سهل، ولكن التخريب والتدمير المتعمد وتعبيد الطرق للســـرّاق والغوغاء هو الذي حدث بالفعل كما رأينا شـــهود العيان يتحدثون عن تلك الجرائم، ورأينا بأعيننا أن معظم الســـرقات كانت منظمة وليســـت عشوائية، وان السرّاق كانوا يعرفون ما يسرقون وما يدعون، كما أنهم يعرفون ما يحرقون من كتب وأوراق ووثائق ومخازن ودوائر، وهم مجهزون

بعدد ومواد حارقة خاصـــة للإسراع بعملية الحرق والتدمير فضلا عن النهب والسرقة، ولقد كان الموقف الأمريكي الذي آثر أن يترك البلـــد بدون حكومة أو نظام بحجة أن العراقيين هم الذين يجب أن يختـــاروا حكومتهم ونظـــامهم هو حق أريد به باطل، لأن ذلك هو الذي فســـح المجال للســـلب والنهب وســـيدمر ما تبقى من البنية التحتية والأمن والســـلام في البلد إذا لم يتم الســـيطرة على الأمور الخـــدمية والأمنية من قبل جهة مركزية وهم يعلمون تلك البديهية ولكنهم تعمـــدوا اهمـــالهـــا. إن تـــدمير البنيـــة التحتية والتوثيقية والحضـــارية للعراق قد جعلت هذه الحرب هي خط الشـــروع بين عهدين بين عراق الأمس وبين عراق اليوم الذي يراد له أن يصنع كمـــا يريده الأعداء، وإن هذه الحرب قد ألغت وأنهت أو تحاول أن تلغي كل أثر لما قبلها، وكأن البلد قد بدأ الآن وبخط شـــروع جديد لبناء دولة جديدة من الصـــفر، فلا حقوق ولا وثائق ولا ثوابت ولا دلائل تاريخية وحضارية لما كان وما سيكون ولا إثبات لأي حق أو عمل أو بناء أو هدم لمرحلة ما قبل الحرب، إنها خطة إبليس اللعين الـــذي مس وتربع في عقول هؤلاء المحتلين مع أعوانهم من الصهاينة والمتصهينين في أمريكا وإنكلترا وبقية الدول التي سمح لها ضميرها المشاركة في غدر العراق وتدمير حضارته.

ولقد قاوم العراقيون الشـــرفاء تلك الأعمال المشينة والجرائم التي أحاطت بالبلد كالطوفان، وأصـــدر علماء الســـنة والشيعة الفتاوى

بتحريمها، وتم عمل لجان حماية مسلحة لردعها وإعادة المسروقات والأموال العامة إلى الجوامع والحسينيات، وقام الشباب المخلص لوطنه ودينه بحماية ما تبقى من الموجودات في المواقع الحكومية. وفي المتحف كان أحد المتطوعين يحمي المتحف بعصا، وطلب أن نوفر له سلاحا وأفرادا، فقلت له لا أجد لكم سلاحاً، فقال: إذا استطعت أن توصلني إلى منزلي فإني أستطيع أن أجلب سلاحاً خفيفاً (بندقية)، وكانت المواصلات صعبة جدا في هذا الوقت العصيب، فأخذته إلى ساحة بيروت (شارع فلسطين) وجلبنا البندقية وعدنا إلى المتحف، وقال –وكان اسمه محمد – لقد طردت ثلاث لوريات من السرّاق بعصاي هذه، فقلت له بارك الله في أمثالك من المخلصين للبلد، وقبل أن نغادر المتحف جاءت مجموعة من الصحفيين البريطانيين إلى المتحف وتحدثنا معهم ووصفنا لهم كيف أن سرقة المتحف والبنك المركزي والجامعات كانت برعاية وموافقة القوات المحتلة، وكيف أنهم وفروا حماية لوزارة النفط ولم يوفروا حماية للمتحف وغيره من المواقع المهمة في العراق، فتأسف ذلك الصحفي البريطاني نيابة عن حكومته التي لطخت نفسها بهذه الجرائم ولم تراعِ القانون الدولي والشرعية الدولية، وودعنا الجميع ورحلنا ثم عرّجنا على فندق فلسطين مريديان حيث المدرعات الأمريكية تحيط بفنائه الأمامي، وذلك للقيام بإيصال صوتنا والنداء الذي حررناه في بيت د. وميض إلى الصحفيين وإلى

الفضـــائيات، وقد قام الأخ ظافر بتلك المهمة، فأوصـــلته إلى هذا المكـان الكريه على قلبي لوجود قادة التحالف فيه.. وقفلت راجعاً إلى بيتي بعـد الاشـــتراك في مظـاهرة عراقية أمام الفندق.. ثم استأنفت تجوالي في بغداد العريقة التي دمرها مغول العصر بمباركة وتسهيل العرب والمنافقين ممن وضعوا أيديهم بأيدي تجار الحروب وقتلة الهنود الحمر لكي يضمنوا السيطرة على أمريكا ثم العالم بعد حين. فكـانــت جولات الاثنين والثلاثاء والأربعاء لا تقل مأســـاة وفجاعة عما رأيت خلال أســـابيع الحرب أو أيام الســـلب والنهب والتدمير من هول الموت والقتل والتدمير والدجل وتشويه الحقيقة وإنا لله وإنا إليه راجعون.

لقد كان نهب مستشفى الكندي في ساحة النهضة ومستشفى البلدي ومســتشفى حماد شهاب في بداية الأسبوع الرابع للحرب. ولقد تم حرق الدوائر المهمة في الدولة كالجيش ومراكز الشرطة والمرور في بغداد بعد نهبها كما ذكرنا. وفي يوم الاثنين ١٤/ ٤ شـــاهدت القوات الأمريكية تحمي إحدى الكنائس الكبيرة قرب ساحة كهرمانة في الكرادة في حين كانت المتاحف والمكتبات والوزارات والجوامع والدوائر العامة الرئيســية بدون حماية حتى نهاية الأسبوع، حيث بدأت قوات التحالف تنتشر في بغداد بعد الجمعة. ٤/١٨ وما بعدها من الأسبوع الخامس.

إن أهم الفئات التي قامت بالسلب والنهب كما يرى شهود العيان والمحللون هي:

١- الغوغاء والسرّاق والمجرمون من العراقيين والعرب وقوات التحالف الأمريكي البريطاني وغيرهم.

٢- قسم من المتضررين والحاقدين على نظام صدام والحزب الحاكم والمبعدين عن مراكز القوة والسلطة خلال حكم حزب البعث.

٣- جماعات من السياسيين الموالين لإيران والذين يرون إنهم بحاجة إلى أموال لتمويل عملهم السياسي المقبل، وقد قام بعض هؤلاء بنقل الأموال والتحف التي تم سرقتها ونهبها إلى إيران لغرض بيعها وتحويلها إلى مال ونقد كما سمعت من بعض الرواة والله أعلم.

٤- قسم من البعثيين الذين يتوقعون أن يكون لهم دور مهم في العمل السري المقبل وبناء الحزب من جديد، وربما يكون هؤلاء قد استغلوا مواقعهم السابقة في السلطة والأسرار التي كانت تحت أيديهم لكي يصلوا إلى كثير من الأموال العامة التي لا يمكن لغيرهم أن يصلوا إليها والله أعلم.

٥- عناصر عميلة ومخربة موالية لإسرائيل وقوات الاحتلال، يعملون بإمرتهم للتخريب والتدمير المتعمد ولإشاعة الفوضى وحرق الوثائق والكتب والتراث العراقي لتحقيق أهداف سياسية

أمريكية وصـــهيونية لتوجيه مســـتقبل العراق لما يخدم مصالحهم وخططهم.

٦- عناصر عميلة لإطراف عربية وكردية وتركية لتحقيق أهداف محددة داخل العراق، أو البحث عن أسرار معينة أخرى.

مصير صدام بعد سقوط نظامه

اختفى صدام نهائياً يوم الجمعة ١١/ ٤ وهناك عدة افتراضات حول مصيره، فمن الممكن أن يكون قد قتل أو جرح أثناء القصف العنيف في الأعظمية أو المنصور أو في أنفاق القصر الجمهوري السرية، ومن الممكن أن تكون قوات التحـــالف قـــامت بتحديد مكانه وقتله وانتشاله دون أن تكشف هذه العملية، ولكي تحكم الطبخة الإعلامية بعد أن انفردت بالإعلام حول نهاية الحرب ومنعت الإعلام المحايد من متابعة الأحداث بعد يوم الثلاثاء ٨/ ٤، لكي تدفن سره وأسرار الحرب وأســـرار الحصار وأسرار حرب الكويت وحرب إيران التي كانت أمريكا طرفا رئيسيا فيها ومحرّضا عليها، ومن الممكن أيضا وهو الأقل احتمالا أن يكون صدام قد اختفى في مكان سري كان قد أعده ســـلفا إذا ما اضطر إليه، وسيكشف المستقبل القريب والبعيد عن ذلك، وربما يبقى مصير صدام لغزاً محيراً أيضاً كما بقي مصير هتلر لغزا محيرا منـــذ الحرب العـــالميـــة الثـــانية حتى الآن، وأن المستفيد من بقاء اللغزين دون كشف النقاب عنها في الحالتين هي

أمريكا والصـــهيونية العالمية، بسبب التداعيات الخطيرة والجسيمة التي حـــدثت بعد هتلر، والتداعيات الأكبر ضـــخامة المتوقعة بعد هزيمة صـــدام واختفائه، فان عصـــر ما بعد صدام مرسوم له أن يكون عصر أمركة العالم وإرهابه بالقوة الغاشمة الأمريكية، وزوال أي خطر محتمـــل على الأمن الإســـرائيلي، وتهميش دور الأمم المتحدة أو إلغائها، وفتح الباب على مصراعيه للعولمة والتأسيس العملي للنظام العالمي الجديد. الذي يقوده القطب الأوحد في العالم ممثلا بالولايات المتحدة الأمريكية.

حدثني أحد شهود العيان الثقات أنه كان في ساحة الفردوس مقابل فندق فلســطين مريديان يوم سقوط صدام الأربعاء ٤/٩، حينما تم إســقاط تمثال صـــدام في وسط الساحة ظهر ذلك اليوم بسحبه من رقبته بحبل بواســـطة مدرعة أمريكية ثم قيام الجموع الغاضـــبة بتكســيره إلى قطع عديدة، وقد حاول بعض هؤلاء إهانة صدام من خلال ركله بالقدم أو المشـــي عليه، وقد حاول الإعلام الأمريكي أن يجعل من ذلك المشـــهد الدرامي ومن سقوط التمثال وتصوير ذلك الحدث وبثه ثم تكرار عرضـــه في الفضـــائيات رمزاً لسقوط نظام صدام معنوياً، وتدمير ما تبقى من الروح المعنوية والأمل المتضائل لأعوان النظام ومؤيدي الرئيس العراقي، وإن يصـــدموهم برسالة مفتوحة حادة وواضحة المعنى، أن لا أمل لكم بعودة صدام ونظامه إلى الحياة، وإسدال الستار على مسرح العهد الصدامي وإلى الأبد،

وقد أستلم العرب الرسالة فوراً ثم تبعهم العراقيون تدريجياً يوماً بعد يوم. لكني في هذه الرواية لم أكن أقصد من عرض تلك الصورة التراجيدية المفاجئة التي مزقت قلوب الكثير من العراقيين بغض النظر عن موقفهم من صدام ونظامه، فهم قد عاشوا عهد صدام وألفوه بكل سلبياته وإيجابياته، ولكنهم يقفون اليوم على أعتاب غد مجهول الهوية ولم يتضح منه سوى وجه الاحتلال والتبعية وفقدان السيادة والاستقلال، أما الوجوه الأخرى فستبقى من الأسرار التي ستكشف للناس تباعاً، يتجرعون ويلاتها الواحدة تلو الأخرى، إنه الخوف من المجهول ومن الفوضى وانعدام الأمن والنظام واستيقاظ الفتن وما أكثرها في العراق، وما ينتظره من محن واختبارات في حياة الحرية التي لم يألفها منذ عقود عديدة، إذا ما أحسنا الظن بالحرية والتحرير الذي وعد به الأمريكان. بقي أن أقول إنني قصدت باستعراض هذه الحادثة المروية من قبل ذلك الشاهد في تلك الساعة، إنه شاهد فيما شاهد أن جندياً أمريكيا تقدم إلى التمثال المتهشم وذهب إلى رأسه وقبّله وهو يقول: إن صدام حسين هو الوحيد الذي تحدى أمريكا وقال لها (كلا) في العالم كله. ترى ماذا تعبر تلك الصورة، هل هي تشير إلى طغيان أمريكا وغطرستها ورعب العالم منها، أم إنها تدل على شجاعة هذا الرجل الذي قتله عناده واستبداده حتى مع من يريد إنقاذه، أم هي رسالة إلى الشعب الذي أنجب هذا التحدي الفريد وقال لا لأمريكا.

لقد أجرى لســـان الحال العراقي المجروح والمحبط من أثر الحرب المدمرة لقاءً اعتبارياً مع القائد المنهزم صدام حسين، وكان الحوار التالي:-

لسان الحال: ما هو السبب الرئيسي للهزيمة؟

صـــدام: بطانة الســـوء، والحزب وقيادة الجيش والحرس فإنهم لم يقاتلوا في بغداد بعد ضرب المطار وقنوات الإعلام بوحشية.

لسان الحال: لماذا اخترت الحكم الدكتاتوري لحكم العراق؟

صـــدام: ليس من السهل أن أحكم شعباً متمرداً مثل شعب العراق، فهم الذين قتلوا الملك وعائلته ووزراءه وســـحلوهم في شـــوارع بغداد، ثم قتلوا عبد الكريم قاســـم وأعوانه بدون محاكمة وبطريقة بشـــعة، وهو الذي أنقذهم من الحكم الملكي الموالي للإنكليز، وهم قـــديماً الذين قتلوا عمر وعثمان وعلياً والحســـين وزيداً والأمين وكثيراً من قادتهم في ســـاعات التمرد والعصـــيان، فكان لابد من الحكم المطلق الفردي لفرض الســـيطرة وقيـــادة هـــذه الجموع والتيارات المتنوعة والمشارب المختلفة.

لسان الحال: لماذا قررت أمريكا والصهيونية إسقاطك؟

صـــدام: رغم أني شـــأن العديد من الحكام جئت إلى الحكم بقطار أمريكي وعدم معارضـــة بريطانية وصـــهيونية، إلا أنني بعد غدر أمريكا وإســـرائيل في حرب الكويت، قررت التمرد عليهم ومحاربة اليهود ودعم الانتفاضة الفلسطينية، وجعلت قضية القدس وفلسطين

محور عملي السـياسـي، وأنشـأت جيش القدس وقمت بإسـناد وتعويض الاستشهاديين والمجاهدين في فلسطين، وأظن أن القدس كانت السبب الرئيس في سقوطي كما كانت سبب مقتل الملك فيصل بن عبد العزيز عام ١٩٧٥م.

لسـان الحال: إذا كنت على قيد الحياة، بم تتهم الأمريكان بشـأن العراق؟

صدام: أتهمهم بالآتي:-

١. إن حربهم ليست شرعية ولا قانونية وسيدفعون ثمن ذلك غالياً في المستقبل ليس للعراق فحسب وإنما للعالم أجمع.

٢. إنهم يعرفون أني لا أملك سـلاح تدمير شـامل لأنهم هم الذين جهزوني به لأضرب الإيرانيين والأكراد، وهم الذين دمروه بالكامل على يد لجان التفتيش الذين كانوا جواسـيس لهم إلا قلة منهم لا يزيدون على ٢٠% وقد اسـتقال بعضهم لكي يفضحوا ستراتيجية التجسس، وستثبت الأيام أنهم استخدموا أسلحة تدمير شامل ومنها السلاح النووي لإسقاط العراق واغتيال دولته بشكل غير نظيف ولا شريف ولا يليق بأخلاق الغرب والدول العظمى.

٣. إنهم سـرقوا حضـارة العراق وتراثه ومتاحفه ودمّروا دولتي وأحرقوها انتقاماً من الشـعب الذي واجههم ولم يسمح لهم باحتلال الأرض، وكانوا صفاً واحداً طوال أسبوعين من القتال البطولي حتى جاءت ساعة الغدر والخيانة والترويع لاحتلال عروس المدن بغداد.

٤. إنهم كذبوا على العالم وتحولوا - كما قلت مراراً- من محررين ومـــدافعين عن الشـــرعيـــة والحرية والتعددية إلى غزاة محتلين ولصوص وقراصنة نفط في نظامهم الدولي الجديد وعولمتهم بغية الهيمنة على العالم.

لسان الحال: هل ستعود لحكم العراق من جديد؟

صـــدام: لا.. لن أعود، فقد انتهى دوري وقدري في حكم العراق، ولكن بعد ثلاث ســنين في المدى القصــير وثلاثين سنة في المدى الطويــل، ســـيتمنى العراقيون عودتي ويدركون فوائد حكمي رغم ســيئاته، ولكن حينها لا ينفع الندم، فسيكون العراق العظيم قد عاد من حيث بدأ جنة الطامعين والمســـتعمرين، ويكون الفســـاد قد اســـتشـــرى حتى يفيض على الجيران الأوفيـــاء، ويكون النفوذ الأمريكي الصـــهيوني قد جاوز المعقول، وتكون الهوية قد ضاعت إلا ما شاء الله.

لسان الحال: بماذا تنصح العراقيين؟

صـــدام: أنصح أشرارهم أن تمسك الهراوة الأمريكية وتضرب بها أشـــرار العرب والعجم. وأنصح شرفاءهم أن لا يثقوا بأهل النفاق وأصـــحاب الشـــهوات والمصالح، كما وثقت بهم فهويت في مكان ســـحيق، وأن يعتمـــدوا أهـــل الخبرة والأمانة لإعادة بناء عراقنا الحبيب. كما أوصـــانا رب العزة بأن خير من اســـتأجرت القوي الأمين. فلم أجد في بطانتي وحزبي وأعواني في ساعة العسرة ذلك

القوي الأمين، فضاع العراق وضاع حلمي الجميل وسط صخب بني صهيون ومخططهم الإجرامي الكبير.

لسان الحال: ماذا تتمنى لو فرضنا جدلاً أنك عدت لحكم العراق؟

صـــدام: ليتني كنت أعلم الغيب وما سيحصل لي بعد ٢٠/ ٣، لتبت إلى الله توبة نصوحة من الظلم والطغيان والاستعباد الذي مارسته على شـــعبي، وأن أحكم بالعدل الذي هو أســـاس الملك حقاً، وأن أســـعى للصـــلح مع الله والمؤمنين والبراءة من الكفار والمنافقين وبطانة السوء التي أهلكتني وقضت على ملكي، وكأنها داء الأرضة والســـوس الذي يدمّر كل شيء بخفاء ومع مرور السنين. وحينها كنـــت ســـأموت مرتاحاً، وتكون هزيمتي نصـــراً في ميزان الله والصالحين، وأكون قد خدمت أمتي بحق، ونصحت لأئمة المسلمين من الحكام والأمراء ولعامتهم من المخلصـــين، وكنت قد رســـمت طريق النجاة لبلدي وشـــعبي ولو بعد حين، ولكن حب الرئاســـة والســـلطة والجاه قد منعني حتى آخر لحظة من الوقوف في صف الإيمـــان والثقة بصـــالح المؤمنين، فجرّعني أعواني مرّ الهزيمة والخســـارة في الدنيا والآخرة وخســـرت سلطاني وسمعتي وورثت الندامة وشماتة الأعداء وضياع العراق من يدي وإلى الأبد.

الجندي الأمريكي في بغداد

لم ير المواطن العراقي الجنـــدي الأمريكي من قبل ولا يود أن يراه على أرض العرب والمســـلمين فضـــلاً عن العراق، لان ذلك يذكّره بعهود الاســـتعمار والتبعية حينما جاء الجنود الإنكليز والفرنسيون إلى أرض العرب لاحتلالها مع مطلع القرن الماضـــي، إثر الحرب العالمية الأولى وسقوط الخلافة العثمانية التي كانت تجمع المسلمين في دولة واحدة رغم السلبيات التي رافقتها والتخلف الإداري الذي صبغ الحقبة الأخيرة من عهدها الطويل الذي دام خمسة قرون.

وحينما انتشرت القوات الأمريكية في بغداد بعد يوم الجمعة ١١/ ٤ بـــدروعهم ودباباتهم، كان ذلك منظرا مؤلما لنا، حيث أصـــبحت صـــورة الاحتلال واقعاً ولم تعد خيالا، ولم يترجل الأمريكان إلا بعد أن انتهت أعمال السلب والنهب والفرهود التي دامت أسبوعا كاملا تحت أنظارهم وربما بتشـــجيعهم، وبعد أن اتخذوا مواقع رئيســـية حول بغداد في أبي غريب والمطار ومعسكر الرشيد وملعب الشعب الدولي والنهروان والراشـــدية والجزيرة السياحية والتاجي وكلية بغداد ومعظم القصـــور الرئاســـية والقصـــر الجمهوري والمواقع الحكومية الحصينة الأخرى، ولقد استفاد الأمريكان من هذه المواقع الحصـــينة الكثيرة التي بناها صـــدام لتحصـــين نظامه فأصبحت – للأســـف– مواقع لتحصـــين المحتلين، مما أعاق العمليات الفدائية

التي كـــان من المتوقع أن يقوم بهـــا العراقيون في بغداد فيما عدا نشاطات محدودة ومتفرقة قام بها بعض المتحمسين في أحياء بغداد وشوارعها خلال مرور الأمريكان فيها.
لقد كنت أتوقع صورة الجندي الأمريكي أن تكون أقرب إلى صورة المســـتعمر الهمجي الذي يقتل دون ســـبب، ولكني فوجئت بجنود شـــباب في عمر العشرينات مدججين بسلاح، يبدو كأنه ليس جزءً من تكوينهم، فهم إلى الترف والميوعـــة أقرب من الجنـــديـــة والعسكرية والقتل والترهيب، كما أنني شاهدت وكأنهم خجلون من دور الإرهابي المرتزق الذي وضعتهم حكومتهم الباغية فيه. ورغم أنني لم أكن أرغب في الاقتراب منهم أو أتحدث إليهم لأنهم جاءوا لاحتلال بلدي بحجج واهية ومنطق غير ســـليم وبدون أي شرعية دولية أو أخلاقية، إلا أنني شـــاهدت منظرين في بغداد تدللان على خجل هؤلاء الجنود وشعورهم بأنهم لا يمثلون دورهم الذي يتمنون كجزء من شـــعب في مقدمة شعوب الأرض حضارةً وتقدماً، شعب يقـــدس الحرية والديمقراطية واحترام حقوق الإنســـان، فكيف به ينســـف كل هذه المثل ويدّمر تلك المبادئ بوســـواس من الشيطان والأطماع وتوجيه من الصـــهيونية في أمريكا وإســـرائيل، لقد كان المنظر الأول يوم الهجوم على الأعظمية في يوم الخميس ١٠/ ٤ وأثنـــاء المطاردة بين القوات الأمريكية ودروعها وبين الفدائيين، حيـــث توقع أحـــد قادة الدروع أنه قد اختبأ فدائي في أحد البيوت

القديمة في حي السفينة، فقذف البيت بقذيفة حارقة فاحترق البيت، فنزل أحد الجنود ودفع الباب فإذا مجموعة من الأطفال والنســـاء يصطرخون داخل المنزل فقال:no, no, no**، فغير الجندي الآخر رأس القاذفة بكبســـولة أخرى وقذف البيت بقذيفة كاربونية فأطفأ النار وذهبوا إلى مكان آخر للبحث عن الفدائيين.**

وحادثة أخرى مع طفلة عراقية صغيرة عمرها ثمان سنوات تسكن في شـــقة، وقد هرعت تريد النزول من الشقة بسبب كثافة القصف في أحـــد أحيـــاء الأعظمية، وحين فتحت باب البناية وجدت أمامها جندياً أمريكياً يصوب سلاحه نحو البناية، فقالت له دون وعي وهي تعيش إرهابا ورعبا لم يتوقعه ذلك الأمريكي المتحضـــر من طفلة بهذا العمر، وهي تسأله تلقائيا وبلغة إنكليزية بسيطة:

How are you?**، فقال لأصحابه ولها:** No, no, no**.. لقد صدمته هذه الطفلة العراقية وأصـــابت حضارته بالصميم، وهو يحاول أن يبرر لنفســـه وشـــعبه ودولته: لا لا لا لســـنا إرهابيين ولا قتلة لهؤلاء الأبريـــاء، إنما نحن نطبق الأوامر، تماما كما قالها ذلك الأســـير الأمريكي المرعوب في الناصرية، إنها جريمة بوش وأعوانه بسبب سياسته الاستعمارية وشغفه بالاستحواذ على النفط، وليس جريمة الشعب الأمريكي المحب للسلام والعدل والحرية. لقد استغربت وأنا أشعر إن هؤلاء الجنود الأمريكان لم يكونوا إرهابيين أو على الأقل لا يريـــدون أن يكونوا كذلك، ولكن ذلك لا يعفيهم من مســـؤولية**

الاحتلال والعدوان على شـــعبنا الآمن ولا من دفع الثمن الباهظ إذا لم يســـارعوا بالخروج من البلد والعودة من حيث أتوا، وســـتثبت الأيام المقبلة ندم الغزاة على فعلهم هذا، والله بالمرصـــاد لكل ظالم متجبّر ومعتدٍ أثيم.

الورقة الطائفية والعرقية

استـــمرت أعمال السلب والنهب في بغداد خمسة أيام، وتوقفت أو خفت كثيرا اليوم الأربعاء ٤/١٦، بل إن جهود المخلصين وفتاوى العلماء الســـنة والشـــيعة واللجان الشـــعبية المسلحة في المساجد والحســـينيات اســـتطاعت أن تبلور حركة معاكسة لأعمال الفرهود شـــكلت ظاهرة نبيلة وطيبة تنســـجم والروح الخيرة التي امتاز بها الشـــعب العراقي بكل صنوفه، حيث بدأت السيارات تعيد الكثير من المســـروقات من الأموال العامة إلى المســـاجد والحسينيات. وكان الكثير ممن ضعف أو دفعه التنافس على النهب والسرقة باعتبار أن أموال الدولة ســـتذهب إلى الصعاليك والمجرمين وهم أولى بها، قد تنبهوا وعادوا إلى الصـــواب، ولما علموا أن ذلك التخريب محرم شرعاً اعتذر البعض بأنه أخذ هذه الأجهزة والمعدات والأموال أمانة عنـــده للمحافظة عليها لعدم وجود هيكل الدولة أو من ينوب عنها،

والبعض الآخر تم إرجاعه بالقوة عن طريق رجال الحماية أو تحت ضغط الجيران. أو نصح الناصحين الشرفاء.

وهذه الظاهرة تشـــير إلى صحوة ووعي متزايد بالمؤامرة المدبرة، وشـــجب للدور المشبوه الذي قام به الأمريكان وحلفاؤهم لتشجيع هذا المســـلك الشاذ، فضلاً عن تراجع مشاعر الإحباط واليأس ورد الفعل ضـــد الظلم الذي وقع على الناس بســـبب العدوان واستبداد النظام الحاكم طوال الحقبة الماضية، وعودة الوعي لكثير من هؤلاء المحبطين والناقمين على حكم صدام المتسلط.

فبعـــد تلـــك الحالة الهســـتيرية لأعمال الفرهود اســـتفاق هؤلاء المهووســـون على حقيقة مؤلمة مفادها أنهم بذلك يدمّرون أنفسهم وحياتهم وعالمهم الجميل وعراقهم المكلوم فعادوا إلى توبة نصوح وهجر لأعمال التخريب والنهب.

وبتوقف هذه الحملة المســـعورة وهذه الفوضى المدمرة، صفا الجو في البلـــد وعاد الأمن والأمان من آثار ذلك المرض المفاجئ الذي أصـــيب به البعض. ولكن الناس الآن يتوجســـون مما هو أخطر وأعظم من ذلك المرض الوقتي الهستيري القصير العمر.. تلك هي الفتنـــة الطـــائفيـــة والعرقيـــة والاقتتـــال بين الطوائف والمذاهب والأعراق، في بلد اشـــتهر بكثرة مذاهبه وأعراقه، وهم يرون أن هؤلاء الطامعين يتمنون أن تشتعل تلك النار التي لا يعلم أحد إلا الله متى تنطفئ إذا ما أوقد شـــررها، فكانوا في كامل وعيهم وحذرهم

من الورقة الطائفية ومؤامرة (لبننة العراق) التي طالما تحدث عنها الإعلام الغربي والصهيوني، فشمر علماء السنة والشيعة عن سواعدهم لنزع أي فتيل محتمل لهذه الفتنة الخطيرة. وتبدو بوادر الوحدة والوعي والسلام والتكاتف هي الغالبة على لسان كل القوى والفئات والشخصيات البارزة على الساحة العراقية.

لقد حاول الأعداء الدخول إلى الفتنة الطائفية وإشعال فتيلها من عدة سبل، منها الربط بين حالة السلب والنهب وبين الطائفية، فقالوا إن صدام السني قد ظلم الشيعة، ولذلك قام الشيعة في حي الثورة بمعظم أعمال الشغب والسلب والنهب بعد سقوط النظام. وحاولوا أن يبثوا بين السنة أن السرّاق هم من الشيعة في الغالب للاستئثار بموارد الدولة لمحاربة السنة اقتصاديا، وبثوا في الأوساط الشيعية أن الذين يشكلون الخطر الأول عليهم هم السنة ممثلين بفئة الوهابية، وتحفز بعض الشيعة من خطر ما يسمى بالوهابية، رغم أنهم - في حالة وجودهم في الوسط السني - لا يشكلون نسبة تذكر، وليس لهم دور أو أثر بارز داخل الوسط السني، وهم أتباع مدرسة النص التي أسسها وقادها الإمام أحمد بن حنبل وابن تيمية، فالسنة في العراق في غالبيتهم أحناف وشوافع، ولكن الأعداء يريدون إشعال الفتنة بكل السبل. لقد حاول الأعداء بث الفتنة والاقتتال بين الشيعة أنفسهم أيضا، لاسيما في النجف الأشرف، مفتعلين صراعا دمويا حول المرجعية بعد سماحهم بدخول

السيد عبد المجيد الخوئي ثم اغتياله بعد مدة وجيزة من دخوله النجف، إذ أنه اغتيل يوم الخميس الماضي ٤/١٠ كما علمت من وكالات الأنباء. ثم تطور الموقف إلى محاصرة أحد كبار مراجع الحوزة العلمية في النجف وهو العلامة (السيد علي السستاني) وإنذاره بالخروج من النجف، ثم قيام أتباعه في النجف ومن أبناء العشائر بالدفاع عنه، وقيام تظاهرات كبيرة لأتباعه في الخليج لفك الحصار عنه، والدعوة لوحدة المرجعية، وإصدار فتاوى ونداءات عديدة من علماء النجف للعمل على مصالحة الأطراف المتنازعة وإلى وحدة المرجعية العلمية في النجف، كل تلك الأمور تنذر باحتمال تفجر الموقف وإثارة الورقة الطائفية سواء داخل الطائفة الشيعية أو بين السنة والشيعة، ولكن الله سبحانه أقوى وأرحم من أمريكا والصهيونية التي تحاول أن تدير الأمور من وراء الكواليس، كما أن نجابة الشعب العراقي وعراقته وخبرته في مواجهة الأزمات والفتن ستفوت الفرصة على الأعداء لإشعال الفتن الطائفية والعرقية بئذن الله تعالى، وقد شهدت الأيام التي تلت تلك الظروف الحرجة أن روح الوحدة والتلاحم بين السنة والشيعة التي ترجمت بشكل لقاءات واتفاقات وفتاوى مشتركة كانت أقوى من الصخر، وقد كانت تلك الروح هي الضمانة الحقيقية لمواجهة كل الفتن والأزمات التي قد تعترض طريق البناء الجديد.

أمـــا الشـــــطر الثــــاني لهذه الورقة وهي العرقية وفتنة القوميات والطوائف الدينية، فنحن نعلم أن شـــعب العراق مكون من شـــيعة وســـنة وعرب وأكراد وتركمان، ومسلمين ومسيحيين ولكنهم كلهم يجمعهم حبهم لوطنهم واحترامهم للآخرين من الطوائف والمذاهب المتنوعة، وإن الإيمان والوســـطية والحكمة والمصـــالح العامة والســـلام والوحدة الوطنية هي القواســـم المشتركة والمبادئ التي تحكم ســـواد الشعب، ولكن الخطر قد يكمن في تأخير قيام حكومة عراقية جديدة لغاية في نفس من يريد الفتنة والاضـــطراب، ولكي ينضّجوا ما يريدون من فتن وتيارات لإثارة حرب أهلية طويلة الأمد بغيـــة الســـيطرة على مقـــدرات البلاد وثرواته إلى عقود طويلة، وإغراق البلد في الفتن والأزمات والديون حتى يصـــبح أداة طيعة بأيدهم، فهم يؤمنون بمبدأ فرّق تســـد (الإنكليزي) أو مبدأ أعطيه الموت لكي يرضى بالحمى كما يقولون.

وإننا إذا ما أردنا أن لا نغالي في إساءة الظن بالأمريكان ونقول إن مصـــالحهم في المنطقـــة لا تتفق ومنهجيـــة إثارة الفتن والحرب الأهلية، فإننا ننصـــحهم بضـــرورة الإسراع بتشكيل حكومة وطنية والســـماح للشـــعب العراقي بأن يضـــمد جراحه ويكوّن دولته، باعتبارهم هم المسؤولين الآن عن الأمن والنظام داخل البلد بعد ما تم لهم ما أرادوا من فرض سيطرتهم على البلد بعد إسقاط النظام.

لقــد جــاء الأمريكان لاحتلال بغداد من جهتي الجنوب والغرب ثم اخترقوا أســوار بغداد بعد معارك عديدة، ووصلوا إلى وسط بغداد في جانب الكرخ حيث دخلوا المنصور واليرموك والحرية ثم توغلوا إلى الكاظمية والعطيفية، ومن هناك إلى جانب الرصــــافة في باب الشــرقي والأعظمية، ومن الجنوب توغلوا من معسكر الرشيد إلى بغداد الجديدة والبلديات واحتلوا مديرية الأمن العامة. ثم من الشمال واصــــلوا تقــدمهم من التاجي حتى بوابة بغداد فالمحيط ثم مركز الاســـتخبــارات في الكاظمية. وفي يوم الثلاثاء ٤/٨ قاموا بإنزال شــمال شــرق بغداد في منطقة الراشدية وعلى السدة في أطراف مدينة الثورة، ثم تقدموا بســهولة نحو قناة الجيش ليصلوا سومر والبنوك ويلتقوا مع قواتهم القادمة من الراشــدية والشعب، فدخلوا منطقة الصــليخ، وبعد ذلك وصلوا آخر مرحلة من مراحل احتلال بغداد، حيث التقت قوات الجنوب والشــمال والشــرق والغرب في الأعظمية وباب المعظم، وحدثت معركة الأعظمية يوم الخميس، وقد قاومت الأعظمية ببســالة لســببين. أولهما وجود الفدائيين فيها وثانيهما وجود صدام مع رفاقه فيها في الأيام الأخيرة قبل سقوطه. وتعد منطقة الثورة ثاني آخر المناطق ســقوطاً بالرغم من ســعة مســاحتها وكثافة عدد ســكانها، ولم تقاتل مدينة الثورة المحتلين شأنها شأن الموصل وكركوك وبعقوبة والرمادي وتكريت، لأن هذه المدن شعرت بعدم جدوى القتال بعد سقوط العاصمة، كما أن هناك

مبررات أخرى لعدم قتال الثورة للمحتلين، من بينها أن دخول قوات التحالف إليها جاء بعد دخول عدد كبير من المعارضة إلى مدن الجنوب، مما أحدث بلبلة في مسألة التمييز بين مقاتلة الغزاة والدفاع عن النظام، لاسيما في النجف وكربلاء، وقد استطاع بعض المعارضين للنظام تحييد الشيعة في قتالهم مع صدام، وهذا الموقف كان له الأثر البالغ في تغيير موقف العشائر في الجنوب والشيعة في بغداد، وهناك سبب آخر هو أثر الصدمة والترويع والحرب النفسية التي مارسها التحالف عن العراقيين بمختلف فئاتهم، وكان نصيب الثورة من ذلك كبيراً نظراً لكثرة الهاربين من جحيم القصف المعادي إلى خارج بغداد، لاسيما من طريق بعقوبة بغداد القريب من ديارهم، وهكذا قرر سكان الثورة مهادنة المحتلين بعدما رأوا نظام صدام يترنح، علما بأنهم لم يكونوا يحبون النظام ولا يؤيدونه أصلاً، وإنما كانوا مكرهين على مجاراته كما يعلم الجميع. إن ذلك ليس دفاعا عن الثورة وأهلها وعن أصالتهم ووطنيتهم التي لا تحتاج إلى دليل، وإنما هو عرض للواقع وما حدث بالفعل في تلك الأيام القاسية، أما ما قيل من أنهم كانوا وراء حملة السلب والنهب، وأن النسبة الغالبة كانت منهم من بين أهل بغداد، ففي ذلك نظر أيضا، حيث أن الكثافة السكانية في مدينة الثورة هي الأعلى من أي منطقة أخرى في بغداد، وأن كثرة المشاركين في السلب تخضع إلى النسبة والتناسب، كما إنهم الفئة من سكان بغداد التي يكثر فيها

العمال والموظفون من ذوي الدخل المحدود، وقد قال الإمام علي ﷺ لو كان الفقر رجلا لقتلته، كما إن انتماءهم المذهبي الذي يغلب عليه التشيع وموقفهم المعادي للنظام، والضرر الذي أصابهم من النظام طوال ثلاثين عاما جعلهم يتحينون الفرصة للإيقاع به والانتقام منه في أية فرصة تتاح لهم. مع كل ذلك فقد وقف علماء الشيعة والسنة في الثورة موقفا صلبا ضد السلب والنهب، وأفتوا بإعادة المواد المسروقة وحراستها والمحافظة عليها، وقد امتثل أهالي الثورة لتلك الفتاوى، بل إني وجدت العديد منهم يتطوع لحراسة المتحف والمستشفيات والمدارس والجامعات، وعليه فإن عملية تشويه صورة أهالي الثورة لدى سكان بغداد هي في الغالب تقع ضمن دائرة الأيادي الخفية التي تريد الإيقاع بين السنة والشيعة، واستغلال أحداث السلب والنهب والحرق والتدمير التي وسعوها وضخموها لكي تؤدي إلى الفتنة الطائفية.

أما بقية الفئات في بغداد كالأكراد مثلاً فليس أدل على وطنيتهم وتآخيهم مع إخوانهم العرب أن استشهد الكثير منهم للدفاع عن بغداد ضد الغزو الأجنبي، وإني أعرف اثنين منهم سقطوا شهداء في الأعظمية، ولا علاقة لهذه المواقف الوطنية النبيلة بالموقف الرسمي لحكام كردستان وتحالفهم مع قوات الاحتلال. وكذا الأمر بالنسبة للتركمان فهم في خندق واحد مع العرب والأكراد، ولا يختلف الأمر مع المسيحيين الذين استنكروا منذ البداية الحرب على

العراق وعدم شرعيتها، فهم في معظمهم كاثوليك وأرثودوكس ولا يؤيدون الموقف البروتستانتي المتصهين في أمريكا وإنكلترا، وهم قبل ذلك عراقيون وطنيون غيورون على بلدهم، كما أن رفض البابا في روما للحرب ودعوته للســـلام وإيقاف الحرب قد تكررت مرات عديدة أبان الحرب العدوانية على العراق.

أما بالنســبة للتعاون والتنسيق بين السنة والشيعة، فقد علمت أن هناك لقاءات بين علماء السنة والشيعة في بغداد وكربلاء والنجف، وإن هناك موقفاً موحداً إزاء الاحتلال، وإن كلا الطرفين واعٍ وحذر مما يدبر في الخفاء لتجيير الفتنة الطائفية لصـــالح الأعداء، وإنهم كانوا صـــفا واحدا في مواجهة المحتلين والدعوة لإنشـــاء حكومة وطنية يكون أساسها الوحدة الوطنية والعدل والسلام، وربما تشهد الأيام المقبلة تفعيلاً أكثر لهذه الجهود الخيرة التي تدعو إلى الوحدة والتقريـــب ورص الصـــف في مواجهـــة كيد الأعداء، وقد حدثت اجتماعات عديدة في الأعظمية والثورة والكاظمية لتنسيق المواقف بين الطرفين حضرها علماء كبار من الفريقين خلال الأسبوع الرابع للحرب برئاسة الشيخ الشاعر وليد الأعظمي والشيخ إبراهيم منير المدرس. ولقد حدثني أحد الشـــيوخ في ديالى عن دخول قوات بدر الشـــيعية عدداً من المدن في ديالى، وكان تعاملهم بمنتهى الأدب والاحترام لإخوانهم الســـنة، وإنهم قد صلَّوا صلاة الجماعة في أحد

مساجد السنة، وحرصوا على حماية الأمن والنظام والمحافظة على الأموال والممتلكات العامة.

لقد كانت لي علاقات وطيدة مع مثقفي الشيعة وعلمائهم منذ السبعينات، وفي مقدمتهم جماعة الشيخ محمد مهدي الخالصي وجماعة المرحوم السيد محمد صادق الصدر وبعض أفراد حزب الدعوة.

واعتقد أن الخط الوحدوي التقريبي الذي يمكن أن يؤدي إلى الوحدة الإسلامية والتقريب القرآني المخلص هو الذي يعتمد مبادئ القرآن والسنة التي تعمق معاني الوحدة والسلام والتعايش البنّاء وتأصيل العلم الشرعي بعيداً عن اللغو والتعصب والخرافة، وتلك هي أهم الركائز التي اعتمدتها في مؤلفاتي ومقالاتي العديدة في هذا المجال. ولقد كنت أنشر مقالاتي في الصحف والمجلات السنية والشيعية، فقد كتبت في مجلة المفكر الإسلامي والرأي والكوثر والفتوى وغيرها من الصحف والمجلات، ومن المقالات التي نشرتها في مجلة الكوثر النجفية مقال مؤتمر النجف ومقال عمر والحسين وجهان لمنهج إسلامي أصيل، وقد نشرت في مجلة المفكر الإسلامي عدة مقالات منها: الإعلام القرآني في ظل منهج التقريب والوحدة، ومقال: الصراع الصفوي العثماني وأثره في بلورة الطائفية، ومقال الأمة الوسط وغيرها. كما وفقني الله سبحانه خلال التسعينات في طبع كتب عديدة في موضوع الوحدة والتقريب بين المذاهب

الإســـلامية. ولقد كانت تلك الجهود جزءً من جهود عديدة قام بها عدد من العلماء والمفكرين الســـنة والشيعة في هذا الميدان لعلاج الطائفية. ولقد قام عدد من علماء الشيعة فضلا عن السنة بمراجعة بعض مؤلفاتي قبل وبعد طبعها، منهم على ســـبيل المثال: العلامة محمد باقر القرشـــي والسيد المرحوم محمد صادق الصدر والسيد حسين الصدر وغيرهم من العلماء الأجلاء. من ذلك نخلص إلى أن الطريق في العراق واســـع ومفتوح للحوار والوفـــاق والوحـــدة والتقريب بإذن الله، وإن الظروف العصـــيبة التي يعيشـــها العراق اليوم ســـتجعل من منهج الوحدة والوفاق من ضـــرورات العمل الإســـلامي العراقي لمرحلة ما بعد الحرب. وإن مســـتقبل العراق سيشرق على جيل يؤمن بالله ورسوله وبالوحدة والتقريب والوفاق على الأصول والمشتركات والمقاصد الحسنة لكي نجعل من العراق رمزا للتنوع المثمر والتعـــايش البنّـــاء بين كافة مذاهبه وطوائفه وأعراقه، ويكون ذلك دافعا لنا لبناء بلدنا الحبيب من جديد بعد طرد المحتلين الطامعين والأعداء المتربصين، وسيحفظ الله العراق وأهله من كل سوء وشر وفتنة إن شاء الله.

إنه من الممكن جدا أن يتحالف السنة والشيعة في العراق لمقاومة الاحتلال تمهيدا لقيام حكم وطني يضـــم جميع فئات الشعب، إذا ما توفرت النوايا المخلصـــة والرغبة في تثبيت أركان وحدة الصـــف ووقوفه صـــفا واحدا ضـــد الأعداء، واتفق الجانبان على شـــروط

التعــايش البنـــاء والتقريـــب القرآني الذي يدعو إلى الاتفاق على الأصول وتوسيع دائرة المشتركات واعتماد فقه المقاصد، واستيعاب المرحلة الحســاسة والظرف العصيب الذي يعيشه البلد بعد الحرب وانهيــار البُنى التحتية للدولة والنظام والأمن العام، والابتعاد عن الغلو والتشدد والتعصب الأعمى والتكفير للفريق الآخر. إن المتعمق في متابعة أحوال الشــعب العراقي وخصاله الأصيلة يرى بوضوح توفر تلك الصــفات والنوايا الحســنة لكل فئات الشــعب ومذاهبه وصــنوفه، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: إن هذا الدين متين فأوغل فيــه برفق، فإن المنبت لا أرضـــاً قطع ولا ظهراً أبقى. كما يقول الإمام الصــادق عليه السلام: إياكم والخصومة في الدين فإنها تحدث الشك وتورث النفاق. فمن الغلو والخصومة وعدم إنصاف إحدى دعامتي عصــر النبوة (أهل البيت والصــحابة) الاكتفاء بذكر فضائل طرف واحد ونســيان أفضال الطرف الثاني، رغم علمنا ومعرفة الفريقين لما كان بين أهل البيت والصـــحابة من أواصـــر الأخوة والمحبة والجهاد المشـــترك والنسب والمصاهرة، حتى رأينا أن إمام البيت العلوي سيدنا علي رضي الله عنه يسمي أولاده باسم أبي بكر وعمر وعثمان، ثم اقتدى به أولاده وأحفاده، وكان ثائرهم مدافعاً عن رسالة الإسلام والشورى، وحاكمهم يتوق أن يحكم بالكتاب والسنة والمحافظة على عرى الإســلام أن تنتقض مع الزمن، والتي هي سنة من سنن الله في الكون سواء عند المسلمين أو عند غيرهم، فبريق الثورات يبدأ

بالخفوت مع الزمن ولكل حالة أســـبابها، وهذا خلق الله ومشــيئته وتقديره، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: لتنتقضن عرى الإسلام عروةً عروة كلما انتقضـــت عروة تشبث الناس بالتي تليها، أولهن نقضا الحكم وأخرهن الصـــلاة. ويقول الرســـول ﷺ: بدأ الإســـلام غريباً وسيعود غريبا، فطوبى للغرباء.. ومن الصور المشرقة لجيل النبوة وتـــابعيهم، زواج عمر رضي الله عنه من أم كلثوم بنت علي رضي الله عنه وزواج علي رضي الله عنه من أسماء بنت عميس زوجة أبي بكر الصديق وأم ولده محمد بن أبي بكر، وقـــد كان الإمام جعفر الصـــــادق يردد دائماً مقولته الشهيرة في وجه من لا يعلم منــــــزلة أبي بكر رضي الله عنه: ولدني أبو بكر مرتين، في أشارة إلى أنه جده لأمه (أم فروة) وجدته (أسماء).

فليحاول كل فرد منا في هذا الظرف الصــــعب إزالة الغربة والظلمة عن عـــالمه ومحاربة الشـــيطان وأعوانه. ولا يكون ذلك إلا بترك الغلو والخرافة والتعصب والعودة إلى الكتاب والسنة وسيرة السلف الصـــالح في صدر الإسلام، وأن نجتمع على ما اتفقنا عليه ويعذر بعضـــنا بعضـــا لما اختلفنا فيه. وحينها يمكن أن نحجم المســـلك الطائفي الذي يريد أن يثيره الأعداء ويجيرونه لصـــالحهم، وجزى الله خيرا أخوتنا الزيدية حين رفعوا شـــعار الوحدة والتقريب منذ القرن الأول الهجري بقولهم: (جواز إمـــامـــة المفضـــول بوجود الفاضل). فحسموا الأمر وقبلوا خلافة الشيخين، وترفعوا عن ثقافة صفين التي جعلت المسلمين صفين، فقد كان المسلمون حينها كلهم

صفا واحدا مع الإمام علي ﷺ والخليفة الشرعي واعتبروا معاوية باغيا عليه تنطبق عليه أحكام البغاة. فليس هناك مبرر لدى البعض أن يركزوا في إعلامهم حول الإمــام علي، ويرفعوه إلى مصـــافِ الآلهة وينكروا فضل أقرانه وأصحابه من أصحاب الرسول ﷺ إن لم يجعلوهم فاســقين، فإياكم يا أخوة الإيمان أن تســتعينوا بالخرافة والروايــات المكذوبة لتجذير الغلو في الدين.. قال تعالى: [قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق]. (سورة المائدة/ ٧٧)

لقــد خرج أكثر من ٢٥٠ ألف متظاهر في الأعظمية ببغداد في أول جمعــة ٤/١٨ بعد أن وضـــعت الحرب أوزارها، تدعو إلى رفض وشـــجب الغزو الأجنبي وقيام حكومة وطنية إســـلامية، وقد رفعوا شعارات إسلامية وحدوية منها: (لا للاحتلال لا للعلمانية نعم للوحدة الإســـلامية) حاملين المصـــاحف والأعلام العراقية، وشعار (إخوان ســـنة وشيعة هذا الوطن ما نبيعه) وكان خطيب الجمعة لذلك اليوم الشـــيخ الدكتور أحمد الكبيسي، وهو من الشخصيات المعروفة ذات الشعبية الواسعة في الأوساط السنية والشيعية، نظراً لعلمه الواسع وأسلوبه المؤثر في البرامج الدينية التي قدمها في بغداد والخليج، حيث عاش خلال السنين الأخيرة بعيدا عن بلده بسبب عدم تجاوب النظام مع أطروحاته الوسطية التي تدعو إلى الوحدة والتقريب بين المذاهب الإسلامية. ورغم أنه لم يكن من تيارات المعارضة العراقية

في الخارج إلا أن مسارعته في العودة إلى بغداد وتصدره للخطابة في أول جمعة في الأعظمية بعد سقوط نظام صدام، قد جعله يتبوء مكاناً بارزاً كأحد الشـــخصيات الإسلامية المؤثرة في بغداد في هذا الظرف الخطير، ومن الشـــخصيات الإسلامية الأخرى التي كان لها حضـــور واضـــح في هذه التظاهرة الكبرى الشاعر الإسلامي وليد الأعظمي –وقد ألقى قصيدة حماسية مؤثرة– والشيخ مؤيد إبراهيم الأعظمي إمـــام وخطيب جامع أبي حنيفة والشـــيخ إبراهيم منير المدرس والشـــيخ إبراهيم طه وجمع كبير من العلماء والمفكرين والشـــبـــاب والطلبـــة وغيرهم من مناطق بغداد والمدن العراقية الأخرى.

إن العراقيين سيواجهون في مرحلة ما بعد الحرب العدوانية، وربما لســـنين طويلة ثلاث مشـــاكل كبيرة تحاول كل واحدة منها أن تفتك بهم وتشـــل حركتهم وقدرتهم في إعادة بناء وطنهم ودولتهم من جديد، إذا لم يتسلحوا بسلاح الإيمان ووحدة الصف والعمل المخلص الـــدؤوب، تلـــك هي معضـــلة الاحتلال الأجنبي ومشـــكلة النفوذ الصهيوني الجديد المتعدد الصور السياسية والاقتصادية والإعلامية والاجتماعية، وأخيرا الورقة الطائفية والعرقية التي يمكن أن تفتك بالشـــعب العراقي وتنخره من الداخل إذا ما اســـتطاع الأعداء أن يُدخلوه في نفق الحرب الأهلية ومســـتنقع التناحر الديني والمذهبي

والعرقي نظرا لتنوع وتعــدد الطوائف والمذاهب والأعراق في بلاد الرافدين.

كلمة للدول المحيطة بالعراق

إن دوام الحال من المحال كما يقولون، وهكذا انتهى عهد صـــدام على يد قوات التحالف كما انتهت عهود وســـقطت عروش لم تكن تظن أنها ســتفنى، وهكذا الملك والحكم دُول بين الناس ولكل زمان دولة ورجال، فهل ســيعتبر الناس من سقوط صدام وقد كان نظامه من القوة والرسوخ بحيث حسب الناس أنه سيستمر قروناً طويلة، وإن حزبه باق على رقاب الناس في العراق ما بقيت الســماوات والأرض، ولكن قدر الله أقوى من كل طغيان وكل قوة عاتية متجبرة وكل نظام في الشرق والغرب يظن أنه باقٍ لا يفنى.

ان الدول المجاورة للعراق والتي أعانت المحتل على تنفيذ جريمته بحق الشعب العراقي، هي في حدها الأدنى قصيرة النظر، وليس لها نظرة ســتراتيجية صائبة. وهذه الدول ستذوق – عاجلاً أم آجلاً – وبال أمرها والضــرر الكبير الذي سيلحق بها وبالمنطقة كلها من جراء تواجد المحتل بين أراضيها، وتنامي النفوذ الغربي في منطقة الخليج الغنية بالنفط، والأثر الخطير على الســيادة والاســتقلال والهوية لدول المنطقة برمتها. إنهم في الحقيقة في نظرتهم للقضاء على صــدام ونظامه العدواني حسب رؤيتهم، كمن يستخدم المدفع

والصاروخ للقضاء على آفة الأرضة والسوس التي دخلت بيتا من بيوتهم، وربما كان الأجدى لهم وللعرب جميعاً أن يحاولوا إســـقاط النظام بشتى السبل الأخرى، كالانقلاب العسكري أو الحرب المحلية المحــدودة بـــالتحالف مع جيرانهم لدرء خطر العدوان عليهم، أو مقاطعة النظام العراقي كما تفعل الدول التي تدخل حروب أو تتورط في خلافات ســياسية حادة مع جيرانها، بدلاً من أن يضعوا أيديهم في أيدي الأجنبي لتدمير العراق نهائياً ونسف هويته والقضاء على بنيتـــه التحتية، بحيث لا يمكن أن تقوم له قائمة، إلا إذا قام العراق بعــد قيــام دولتـــه الجديدة -كما فعلوا أثناء حرب الخليج الثانية- بالاســـتعانة بالأجنبي للانتقام منهم، ولعل الخليجيين قد رســـموا سياسة وفلسفة الأضعف في الانتقام من خصمه، دون أن يعلموا ما في هذه الفلســـفة من تدمير لهوية الأمة ووحدتها ودعوة للتفتت والتشـــرذم المنهجي، والوقوع في هوة الذل والهوان الســـحيقة، وسوف يأتي ذلك الحين الذي يتآمر فيه الأنذال وليس الشرفاء من العراقيين على من حولهم، إنهم أولئك الأوباش من محترفي السلب والنهب والإجرام الذين جيّشـــوهم بالتعاون مع المحتلين لنهب البلد وسلب مقدراته ووثائقه ومتاحفه وجامعاته، لأن هذا السوس المدمّر الذي غفلوا عنه، سينمو ويرتقي إلى مراكز القوة في البلد بمساعدة المحتلين، فماذا ســـيقولون لو أنهم وقعوا فريســـة هؤلاء، وهل سيحميهم الغزاة؟.. إذا كان تدمير الخليج من جديد- كما كان تدمير

العراق اليوم- سيصب في مصلحة القوة الغاشمة العالمية، التي لا يحكمها قانون أو اتفاق، ماذا سيقولون لو أن أمريكا تبنت مقولة لا تسـر الكويـت وبقيـة دول الخليج، بالعودة إلى الدفاتر القديمة والوثـائق الملكية والعثمانية، هل سـينفع القانون الدولي والأمم المتحدة والشرعية الدولية إذا كانوا هم من أيد تهميشها وتعطيلها، وهذا المنطق ينطبق على كل الدول والأقليات والأحزاب التي أيدت العدوان والغزو الأمريكي للعراق سـواء بسـواء، وإن غداً لناظره لقريب.

إن احتلال العراق وما سـيحدث بعده من تداعيات كبيرة سـتغير السـتراتيجية السـياسية في منطقة الشرق الأوسط خاصة والعالم بشـكل عام، فمن المتوقع أن تقوم حكومة فيدرالية ديمقراطية في العراق ممثلة للسـياسـة الأمريكية في المنطقة والعالم، وإن هذا الوضـع سـيذكرنا بدور العراق أبان الحكم الملكي بإدارة نوري السـعيد وموالاته للمحتلين الإنكليز من خلال قيادة العراق لحلف بغداد المعروف الذي كان يضم تركيا وإيران والأردن والعراق، كما يتوقع أن يكون الحكم في العراق شـبيهاً بحكم الشـاه في إيران وممارسة دور الشرطي الأمريكي للسيطرة على الحوض النفطي في الخليج وبحر قزوين وشـرق أوربا والاتحاد السوفييتي فضلا عن توفير الأمن الحديدي لإسـرائيل، وسـيكون العراق مرشحا لحمل الهراوة الأمريكية، وذلك سيتطلب أموراً عديدة منها:-

توسيع حدوده البحرية والبرية وإضافة موانئ جديدة له للقيام بهذا الدور، كما إنه وبسـبب التناقضـات والأزمة المستعصية للقضية الكردية وتفرق العرق الكردي بين خمس دول حول كردسـتان هي العراق وإيران وتركيا وسـوريا وروسيا، سيكون من أبرز الأنظمة التي سـيقع على عاتقها تحجيم الدور السياسي الكردي والالتفاف على قضـيتهم القومية، لاسـيما الطموح المشـروع بتكوين دولة كردية في كردسـتان وإقامة حكم كونفدرالي كردي ضـمن دولة العراق الجديد، فمن مصـلحة أمريكا ترضـية تركيا وإيران بقمع وتحجيم ذلك الطموح الذي كان وراء انفصـال كردستان بعد حرب الخليج الثانية بتشـجيع وتخطيط أمريكي ضـد الحكم المركزي في بغداد في عهد صدام أبان حقبة الحصار. فماذا سيقول الأكراد وبقية دول الخليج ومصـر وباقي الدول التي أيدت أو سـكتت عن الغزو الأمريكي للعراق بحجـة التخلص من صـدام وحكمـه الفردي الاسـتبدادي؟.. وفي أجواء تلك التداعيات والأحداث الجسـيمة والمأساة التي من المنتظر أن تحل بالعرب والمسلمين في مرحلة ما بعد الحرب، نخشى على الأمة ممثلة بشعوبها العديدة وحكامها أن تردد المثل العربي القديم الذي يقول: (وعلى نفسها جنت براقش).
إن الدور المرسـوم للعراق بعد الحرب كدولة مقربة وصـديقة للولايات المتحدة الأمريكية، وكدولة راعية للمصـالح الأمريكية في الشـرق الأوسـط كما كان الشاه قبل مجيء الخميني عام ١٩٧٩،

يجعل كافة الحســـابات الســـياســـية والستراتيجية تنقلب رأساً على عقب، وتجعل كل دولة مجاورة للعراق بل حتى أوربا واليابان فضلاً عن الدول العربية والإسلامية الأخرى تنظر بعين الريبة والتوجس مما ينتظرها من تغيير في الموازين المختلفة سواء موازين القوى والعلاقات الدولية أو كيفية معالجة الأزمات الســـياســـية القديمة والقادمة وعلاقة ذلك بالمرجعية الدولية في الأمم المتحدة ومجلس الأمن، مما ســـيغير بشكل جذري طبيعة العلاقات والتكتلات الدولية في المســـتقبل المنظور، إن الدول التي ساهمت والتي وقفت تتفرج على سقوط نظام صدام الذي لا يمكن أن ننفي عنه صفة الشرعية رغم مســـاوئه، ســـتنظر بعين الريبة والشك الذي قد يصل إلى حد الخوف الســـياسي وعدم الثقة في النظام الوريث والموالي لأمريكا والراعي الأول لمصالحها في المنطقة، كما أن علاقة عراق ما بعد الحرب بإســـرائيل ستكون هي الأخرى محل جدل ونزاع بين حكام العرب وشـــعوبهم. يا ترى كيف ستؤول الأمور في السنين القليلة القادمة؟.. وهل ســـينقلب السحر على الساحر بالنسبة للدول التي تحالفت مع أمريكا، أَمْ إنها ســـــتحاول أن تبحث لها عن دور آخر عسى أن يقبله التوازن الدولي الجديد، لاسيما في المنطقة العربية وحول إســـرائيل بالذات. إن هذه كلها أسئلة وتوجسات ينبغي على الدول المحيطة بالعراق والدول العربية المحيطة بإسرائيل أن تسألها

لنفسها وتحاول أن تضع إجابات افتراضية لها لكي تنجح في الامتحان الصعب القادم بعد العدوان على العراق واحتلاله.

الفدائيون والاستشهاديون العرب

بعد أن بدأت الحرب على العراق ونتيجة التعاطف الدولي معه والهيجان العربي والإسلامي لشجب العدوان، بدأت جموع من الاستشهاديين العرب تتوافد على العراق من الحدود السورية، وكان أغلب هؤلاء من الأخوة السوريين والبعض الآخر كانوا من مختلف الجنسيات العربية، كاليماني والفلسطيني والأردني والخليجي والسعودي واللبناني والمصري والجزائري والمغربي وغيرهم من المجاهدين العرب والمسلمين. وكان العدد المعلن لهؤلاء ستة آلاف فدائي عربي، لكن مَن رآهم من شهود العيان يقدرهم بأكثر من ذلك، وقد كان هؤلاء الفدائيون العرب متحمسين جداً للقتال. ولقد قاتلوا جنبا إلى جنب مع الشعب والفدائيين العراقيين خلال الأسابيع الثلاثة، وربما نستطيع أن نؤكد أنه من مجموع ستة آلاف استشهادي تدفقوا أثناء الحرب للدفاع عن العراق وأهله وأرضه من أن تدنس من قبل الغزاة، إن أكثر من ثلثي هذا العدد قد أستشهد على طول الساحة العراقية وعرضها من البصرة وحتى الموصل، كما يمكن تقدير عدد الشهداء في المدن والمواقع المهمة، بأن هناك ألفاً منهم قد أستشهد في معارك الناصرية والبصرة وألفاً في النجف

وكربلاء والحلـــة وألفاً في بغداد في المعارك الأخيرة لاســـيما في المنصـــور والأعظميـــة والعامرية والمطار والتاجي وغيرها من المعارك البطولية التي استمرت عدة أيام بعد إعلان سقوط النظام.

غير أنه من المؤســـف أن بعض المتخاذلين لاســـيما المرتبطين بالنظام أخذوا ينزعجون من مقاومة هؤلاء الاســـتشـــهاديين سواء العرب أو العراقيين، والذين استمرت مقاومتهم لما بعد السبت ١٢/ ٤ في عدد من مناطق بغداد، فكان البعض يقوم بتسليمهم إلى قوات التحالف بثمن بخس أو يهددونهم لترك جهادهم والرحيل من حيث أتوا، وفي المقابل بقي معظم الشعب مساندا لهذه الحركة البطولية (حركة المقاومة الاســـتشـــهادية في بغداد والمحافظات) وكانوا يؤونهم ويقدمون لهم المؤن والغذاء والسلاح، وكان هؤلاء الأبطال قد اتخذوا من المساجد مقرات لهم ولانطلاقهم ضد المحتلين لاسيما في الأعظميـــة والعامرية والمنصـــور، وبعد أن تراجعت إمكانية المقاومة وأصبحت بغداد في حكم المحتلة وبدأ الغزاة ينتشرون في كل درب وصـــوب من بغداد، قام أهالي بغداد الشـــرفاء بمســـاعدة الاســـتشـــهاديين لترحيلهم إلى الحدود الغربية عبر طريق بغداد الرمادي إلى الرطبة والقائم.

وقد حدثني أحد الثقات الذين كانوا في أحد مراكز تجمعهم في بغداد أن عدداً منهم عندما وزع عليهم الســـلاح رفضوا استلامه وطالبوا المســـؤولين أن يســـلموهم أحزمة ناســـفة، وقال أنه قد حدثه أحد

هؤلاء الاســـتشـــهاديين العرب، أنهم بعد أن تجمعوا في بغداد وتم تصويرهم في الإعلام العراقي وعرضهم على الصحفيين ومراسلي شبكات الإعلام الفضائية العربية والأجنبية، وبعد أن انتهت المهمة الإعلامية تركوا في البناية دون أن يبقى معهم أحد من المسؤولين لتوجيههم وتهيئتهم للقتـــال. وقـــد كان أكثرهم شـــباباً في ســـن العشرينات ومنهم من كان عمره سبعين عاماً ومنهم أطفال وصبية لا يتجاوز عمرهم ١٤ ســـنة، وأن أحد هؤلاء الأطفال كان قد عبر الحـــدود تهريباً وبدون علم أهله، وعندما علمت به أمه لحقته إلى بغداد وكان يتخفى عنها من مجموعة إلى مجموعة. ويذكر أنه كان من بينهم عددٌ قليلٌ جداً من الجواســـيس ذكروا منهم أردنيا واحداً. لقد أبدى الاستشهاديون بطولات نادرة أثناء القتال، فكان عدد منهم يقوم بـــاقتحام باب الدبابة والدخول فيها وتفجير نفســـه مع طاقم الدبابة المعادية، وقام أحدهم برمي الدبابة بالقذيفة الأولى والثانية وعندما نفدت ذخيرته هجم عليها بجسمه، ويروي شهود عيان أن مجموعة منهم تعدادهم بحدود المائة في طريق الناصرية- البصرة أعطبوا في يوم واحـــد ٤٠ دبابة. ويذكر الذين رافقوهم أنهم كانوا مثال الطاعة والالتزام والانضباط وكانوا من الزهد والبساطة لدرجة أن أحدهم يقاتل يومين وغذاؤه كسرة خبز يابسة في جيبه. ويذكر من كان معهم أن من يســـتشهد منهم تكون رائحته رائحة المسك، ويقول أن هذه الرائحة الزكية لا زالت في أنفي منذ عشرين يوماً.

ويروي أن كل من تم دفنه من هؤلاء الشـــهداء كان يشير بسبابة إصبعه للتوحيد.

لقد كانت الإدارة العراقية لهم فاشـــلة، حيث اســـتلموا أكثرهم من الحدود وبعضهم جاء بنفسه وجمعوهم في فندق السدير ضمن قوائم وحســـب الروتين، وأخــذوا جوازتهم وحجزوهــا عند جهة أمنية خاصــة، وفي النهاية وبعد سقوط النظام جاء الأمريكان واستولوا على هــذه القوائم والجوازات أو معظمها وأصـــبحت أحدى الأدلة والوســـائل المهمة في متابعتهم وتعقب تواجدهم. ثم قام العراقيون في بداية الحرب بنقلهم وتوزيعهم بدون منهجية أو خطة واضحة، فمن قائمة إلى قائمة إلى المعسكرات، وفي المعسكرات أفهموهم أن العراق ليس بحــاجة لهم وأن وجودهم هو لمجرد رفع المعنويات. لقــد تعرض هؤلاء الفدائيون لإطلاق النار في المعســـكرات عدة مرات. وعندما رفضـــوا المعســـكرات وتوجهوا إلى جبهات القتال تركوهم بدون دليل أو قائد أو خطة ميدانية لعملهم الفدائي. وعندما كانوا يطلبون منهم ذلك، كان الضباط يقولون لهم: انتم استشهاديون وهذا العدو أمامكم.. ثم يتركونهم وينصـــرفون عنهم. وقد تواترت الروايات وأقوال شهود العيان أن كثير منهم جاء مشياً على الأقدام من الســـماوة ومن النجف وكربلاء حتى بغداد لاسيما في الأسبوع الثالث وبعد ارتباك الأمور في المدن الجنوبية بعد وصـــول قوات التحالف إلى بغداد.

لقــد قتــل كثير منهم غدراً من الخلف، وإن أكثر الشـــهداء كانت إصـــابتهم من الخلف. ويذكرون أنه في معركة المطار رمى أحدهم الدبابة الأمريكية وعندما اشتعلت فيها النار صاح الله أكبر، فأطلق عليه أحد المتخاذلين النار من الخلف فقتله.

وبعــد ســـقوط بغــداد تذمر بعض الناس منهم -وإن كانوا قلة- واعتبروهم ســبب البلاء، وحاولوا التخلص منهم إما بالوشاية أو بطردهم أو بإسماعهم كلمات جارحة، أما الأكثرية من العراقيين فقد أكرموهم وساعدوهم على الاختباء أو الخروج. ويذكرون في شارع حيفــا في بغــداد أن امرأتين قــامتــا بــإخفاء وتهريب عدد من الاســتشــهاديين بعد ســقوط بغداد وســيطرة قوات التحالف على المــدينــة. وفي محــافظة الأنبار قدم الناس لهم كل المســاعدة وأوصــلوهم إلى الحدود قرب مدينة القائم. وقد تم ترحيل ما لا يقل عن ألف وخمســمائة اســتشهادي برواية شهود العيان من أغلب مناطق بغداد إلى الصحراء الغربية.

ظاهرة الاستسلام ورفع الأعلام البيض

قام البعض برفع أعلام بيض على البيوت والسيارات بعد سقوط بغداد مباشرةً، والجدير بالذكر أن أغلب من وضع الأعلام البيض تعبيراً عن الاستسلام لقوات الاحتلال، كانوا من المتخاذلين والواهنين وأذناب النظام المندحر، أما الشرفاء والأبطال فقد واصلوا رفضهم للاحتلال وشجبهم للغزو حتى النهاية وهم الأغلبية، وقامت مظاهرات عديدة تندد بالاحتلال وبأعمال السلب والنهب التي دعمها الغزاة وبالتخاذل والاستسلام، وإن من أوائل المظاهرات التي حدثت في بغداد هي مظاهرة الأعظمية بعد صلاة الجمعة ليوم ٤/١٨ تشجب الاحتلال والتدمير الذي تعرض له البلد، وتدعو إلى إقامة حكومة إسلامية لا سنية ولا شيعية وإنما تضم الجميع لإعادة النظام والحياة إلى هذا البلد المنكوب، وقد سبق هذه التظاهرة الضخمة مظاهرة أخرى في الأعظمية والكاظمية عصر الخميس ٤/١٧ حيث شارك فيها جمع كريم من علماء الشيعة ومثقفيهم في الكاظمية مع علماء السنة في الأعظمية، والتقى المتظاهرون على جسر الأئمة ثم ساروا مجتمعين حتى ساحة عنتر، كما قامت مظاهرات يومية أمام فندق مريديان منذ الأحد ١٣/ ٤ حيث تتمركز قيادة قوات التحالف ووسائل الإعلام والصحف والقنوات الفضائية العالمية في بغداد، وكنت قد شهدت هذه المظاهرات ليومي الأحد والاثنين ١٣-٤/١٤ وهي تندد بالعدوان والاحتلال وتطالب بجلاء المحتل من العراق.

أصحاب الفيل

﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. ألم يجعل كيدهم في تضليل. وأرسل عليهم طيراً أبابيل. ترميهم بحجارة من سجيل. فجعلهم كعصف مأكول﴾[٢]

من المعلوم أن الحزب الجمهوري الأمريكي الذي ينتمي إليه الرئيس الأمريكي بوش وإدارته الحالية هو الحزب الذي أيد مشروع الحرب على العراق وأغرى الشعب الأمريكي بالثروة النفطية والطبيعية الهائلة في العراق، وروج لفكرة تصدير الديمقراطية الأمريكية إلى خارج أمريكا وتدعيم العولمة وفكرة أمركة العالم، وكان اللوبي الصهيوني هو المحرّض الأكبر والقوة الدافعة والفاعلة لهذه التوجهات الاستعمارية الأمريكية والمستفيد الأكبر من غزو العراق واحتلاله. والمعلوم أيضا إن شعار الحزب الجمهوري هو الفيل، فهم أصحاب الفيل في أمريكا أي أصحاب الفيل في العصر الحاضر، يربطهم بأصحاب الفيل الأحباش في عصر المولد النبوي أن شعارهم واحد هو الفيل، وكلاهما قد اقترف جريمة الغزو والعدوان على أرض العرب ومقدسات المسلمين، فأبرهة الحبشي نظير بوش الأمريكي، وإن غزو مكة من قبل جيش أبرهة المدجج بالسلاح والعدة والعدد الكبير من الجند والمرتزقة، يقابله غزو قوات التحالف وجيوش بوش وبلير المدججة بأحدث

---

[٢] سورة الفيل.

الأســــلحـــة والتكنولوجيا المحرمة وغير المحرمة، جاءوا بعدتهم وعـــددهم عبر البحار والمحيطات، يدفعهم الهاجس الاســــتعماري واجتياح العراق الصـــابر، مســــتخدمين مختلف الحجج والذرائع والتزييف الإعلامي والحرب النفســـية لتحقيق هدفهم الخبيث في احتلال العراق ونهـــب ثرواتـــه وربطه بعجلة النظام الدولي الجديد الذي تتزعمه أمريكا، وإن كل من قام بدور الدليل في تسهيل الغزو الأمريكي يمثل دور أبي رُغال. وإذا كان عبد المطلب جد النبي ﷺ وأمير مكـــة وزعيم قريش يومها قد أجاب أبرهة حينما طالبه بأن يعيد له إبله، فقال له أبرهة ظننتك جئت تسأل عن مكة وتدافع عنها أو ترجو عدم تدميرها وهدم الكعبة، فإذا بك تسأل عن الإبل، يا لك من شيخ خرف.. فأجابه عبد المطلب: إنما أنا رب الإبل، وإن للبيت رباً يحميه.. فضـــحك أبرهة مســـتخفا بقناعة عبد المطلب ونظرته الغريبـــة لحمـــاية البيت العتيق وكعبة الله في الأرض، وما هي إلا ساعات حتى بدأ الذعر والخوف يدب في جيش أبرهة، بعد أن رأوا أن الطير الأبابيل بدأت ترميهم بالحجر وتفلقهم إلى نصـــفين فهلك أبرهة وجيشـــه، وكذلك كان الله ســـبحانه مع العراق في تصـــديه للعدوان، فيما حدث لجيش بوش في الأســـبوع الأول بعد اجتياح العاصفة الرملية لجيشه المدلل في الصحراء لمدة ثلاثة أيام، والتي دمّرت وخرّبت أجهزتهم ورادارا تهم ومعداتهم وأحاطتهم بدوامات هوائيـــة خـــانقـــة ورياح رملية، جعلت أهل العراق يتذكرون يوم الأحزاب حينما حاصر المشركون المدينة المنورة، وكيف أن الريح

العاتية التي أرسلها الله دكت حصونهم وقدورهم فاضطرتهم إلى الرحيل عن المدينة وفك حصارها، وقد حاول العراقيون استغلال هذه العواصف الربانية ومناقلة الجيش والحرس الجمهوري والفدائيين بين بغداد وجبهات القتال في الجنوب، وقد كانت هذه المناقلة العسكرية فرصة ذهبية لتكبيد العدو خسائر جسيمة وتقوية الدفاعات العراقية في البصرة والناصرية والنجف والحلة والكوت وحول بغداد، وتم بعدها تكبيد العدو خسائر غير متوقعة، جعلت الأمريكان يفكرون جديا بمراجعة خططهم وتغييرها جذريا كما حدث فعلا، حينما التجأوا إلى الاستخدام المكثف للأسلحة المحرمة في معارك بغداد الأخيرة، وصنعوا غطاء إعلاميا لإخفاء جريمتهم وضعفهم، وذلك بتحجيم دور الإعلام العالمي المحايد، ليخفوا جرائمهم ولكي يقولوا للعالم أن العراق استسلم دون قتال لكي يتم تشويه صورة الشعب العراقي وبسالته، ولكن هيهات، فإن الله سبحانه الذي خذل جيش أبرهة ونصر أهل مكة على أصحاب الفيل قبل خمسة عشر قرنا، هو أكبر وأقوى من قوات التحالف وسينصر هذا الشعب العظيم على الغزاة الطامعين ولو بعد حين، وقد جعل الله سبحانه من العاصفة الرملية والانتصارات الكبيرة في معارك أم قصر والفاو والبصرة والناصرية والسماوة والنجف وبغداد والأنبار آيات بينات على وعده بالنصر لأهل الحق والمؤمنين بوعد الله ونصره حين يأذن الله سبحانه كما اخبرنا في سورة الفيل وفي آيات كثيرة في قرآنه العزيز.

الحرب العاصفة

إن هذه الحرب الغاشمة الظالمة التي اجترأت فيها أمريكا على الله والإنســانية وعقرت ناقة الشرعية الدولية هي حرب عاصفة بحق بكل شئ من حولها، لقد عصفت هذه الحرب البربرية المدمرة التي افتقرت إلى الشـــرعية والأخلاقية والتي ســـيتحمل وزرها كل من شارك في الإعداد لها وتمويلها وتقديم التسهيلات لها، لقد عصفت هــذه الحرب بــأركان النظام العالمي والمنظمات الدولية والعربية والإســلامية التي كانت تبدو وكأنها مؤســسات هزيلة فاقدة الحياة والفعل الســياســي أمام الطغيان والغطرســة الأمريكية لفتح باب العراق بهدف السيطرة على العالم والهيمنة على مقدرات الشعوب والدول في شــتى الأصقاع والأنحاء. لقد انتهى دور منظمة الأمم المتحــدة ومجلس الأمن الدولي ولم يعد لها دور أو قوة فاعلة في الأحداث المقبلة وفي حل المشــاكل الدولية في المستقبل لوقوعها في زاوية الشلل السياسي لتفعيل قراراتها وإلزام الدول بها، بعد أن تركتهــا الولايات المتحدة وراء ظهرها في عملية ضـــرب العراق واحتلاله. لقد عصـــفت هذه الحرب بأمريكا وديمقراطيتها ومثلها واحترامها لحقوق الإنسان وسيادة الدول والتزامها بالقانون الدولي ومواثيق المنظمــات الــدولية وفي مقدمتها الأمم المتحدة ومجلس الأمن، واحترامها لأجهزة الإعلام العالمية الحرة. وكشـــفت الروح

الاســتعمارية الإمبرّيالية التي تجذَّرت واستقرَّت في قلوب رؤسائها وقادتها ومؤسساتها.

كما عصفت هذه الحرب بمصداقية الحضارة الأمريكية وديمقراطيتها وقدرتها على إقناع العالم المتحضر بالحذو تجاه النموذج الأمريكي الذي فقد الشــرعية والمصــداقية في دعوته الديمقراطية واحترام حقوق الإنســان داخل أمريكا بعد أحداث ١١ أيلول وخارج أمريكا بعد ضــرب العراق. وأصبحت الحضارة الأمريكية والنظام الدولي الجديد والعولمة في أســوأ وأضــعف حالاتها وقدرتها على إقناع العــالم بــأهمية مفاهيمها بعد موت القوة الذاتية الفاعلة لها أمام المنطق الهمجي الذي فرضــته أمريكا على العالم في تعاملها مع الدول والأزمات ومعالجتها الكيفية والمزاجية لهذه الأزمات، فيا لها من خســارة عظمى للحضــارة الأمريكية وانحدار مظلم وســحيق للمنهج الأمريكي وتداعياته بعد هذه الحرب اللا شــرعية العاصفة بكل المفاهيم الخيرة في الحضــارة البشــرية، إنها مرحلة انحطاط الإنســان ونظرته البربرية للسياسة والاقتصاد والدين والاجتماع. إنها عودة للقرصنة وشريعة الغاب التي كانت سائدة في أوربا في القرون الوسطى الهمجية، تلك هي جريمة أمريكا الكبرى في مطلع القرن الواحــد والعشــرين دفعتهــا نحوها الروح الاســتعمارية والغطرســة والطغيان الذي نفخته فيها العقلية الصهيونية الشريرة التي تطمح إلى السيطرة على العالم من خلال الأخطبوط والنموذج

الأمريكي الغاشـــم. ثم عصـــفت هذه الحرب بصدام حسين ونظامه الدكتاتوري المتحجر الذي أراد أن يكون فرعون العصر وأن ينصب من نفســـــه في العراق بديلا عن الله ســــواء أكان يعلم أم لا يعلم، وعصـــفت بحزبه الذي كان أفســـد منه، حكم البلاد أكثر من ثلاثين عاما بالحديد والنار وبالاســـتبداد واســـتعباد الشعب حسب نظرية الحزب الواحد المتعسفة، وقد قتل صدام وحزبه روح الإبداع والعمل والتحدي والبناء بتلك الروح الفردية والنظرة المصلحية والنفعية، حين كان الولاء لصـــدام أساسها دون أي اعتبار للأمانة والكفاءة والخبرة، مما أدى إلى تفشي الفساد الإداري والرشاوى والسرقات وقتل العقول المخلصـــة والعاملة والمبدعة وهجرتها إلى ما يشاء الله بحثا عن الأمن والرزق والحرية، فكانت النتيجة المرّة المتوقعة هزيمة النظام وحزبه خلال الأيام الأولى -كما توقع الأمريكان- لولا إن أصـــالة الشعب العراقي ورصيده الأخلاقي الكامن وغيرته على وطنه ودينه ضـــد الاحتلال الأجنبي، هي التي أخّرت الســـقوط بل حولتـــه إلى نصـــر، ولقد عزّ على الأمريكان تحقيق أحلامهم إلا باستخدام السلاح النووي وأسلحة التدمير الشامل المحرمة، فشهدت الأسابيع الأربعة، أسبوعين لصالح الشعب العراقي، ذاق الأمريكان مرّ الهزيمة فيهما، وأسبوعاً ثالثاً اضطر الغزاة إلى استخدام الخطة البديلة للصـــدمة والترويع باللجوء إلى الأساليب القذرة والأسلحة المحرمة، والأســـبوع الأخير الذي كرّســـه الغزاة للســـلب والنهب

والتدمير والإحراق على يد عصـــابات الســـلب والنهب من داخل وخارج البلد وبمساعدة وتشجيع قوات الاحتلال، للانتقام من الشعب وتدمير بنيته التحتية ووثائقه وكتبه ومتاحفه وجامعاته ومدارســـه تماما كما فعل هولاكو وجيشـــه المغولي قبل سبعة قرون في بغداد العباســـية، فتلوثت مياه دجلة باللون الأزرق والأحمر، لامتزاجها بأحبار الكتب ودماء الشهداء، وما أشبه اليوم بالأمس، فبوش هو شـــبيه هولاكو، وهمجية الأمريكان تشـــبه إلى حد كبير همجية المغول، وشعب العراق كان محروما فقيرا في الحالين، وغنى صدام لا يشـــبهه إلا غنى المســـتعصـــم وخزائنه التي كانت ممتلئة، والمتآمرون والخونة والبطانة الفاسدة حوليهما هم أنفسهم أو هم اليوم أحفـــاد أولئك المتخاذلين الذين تحالفوا مع هولاكو لإســـقاط بغداد وحضارة الرشيد.

لقد عصـــفت هذه الحرب أيضـــاً بكل الحكام العرب المســـتبدين والعملاء، وســـيلمس هؤلاء أثر ذلك العصـــف الذي ســـيهز أركان حكمهم في الفترة القـــادمـــة، لعـــدم امتلاكهم الحس والقدرة على الارتقـــاء لفهم الشـــارع العربي وهمومـــه واحترام الفرد العربي والتقرب إليـــه ومعرفـــة دواخله وآلامه، إن تداعيات هذه الحرب ســـتعصـــف بأشكال الحكم وأنماطه الهزيلة وتبعيته للأجنبي وعدم قدرته على التحرر من قيوده وأوثاقه وسياقاته الشكلية التي لا فعل لها ولا أثر على الســـاحة العربية، والذي يحصل في فلسطين الآن

وما حصـــل في العراق أكبر مؤشـــر على فشـــل الأنظمة العربية والحكام العرب في مواجهة التحدي الذي يعيشـــه العرب اليوم في الهجمة الاســتعمارية الصهيونية المسعورة والتي اتخذت من غزو العراق منطلقاً عسكرياً لها.

وقد عصــفت هذه الحرب بالأحزاب والمنظمات الإسلامية والقومية والعلمانية في تصور ما يمكن أن يحل بأي دولة عربية أو إسلامية فيما إذا توجه إليها المارد الأمريكي الصـــهيوني بحجة الإرهاب أو توفير الحرية والديمقراطية أو غيرها من المسميات التي يتذرع بها الأعداء لمحاربة الأمة وتدميرها.

إنها الحرب العاصفة التي لا تبقي ولا تذر لأحد أية قوة أو استقلال أو سيادة على ماله وعرضه وأرضه وأوطانه، إنها حرب الشيطان ضد الشعوب والأوطان وضد الخيرين من أولياء الرحمن وضد كل إنســـان حر شريف يؤمن بالعدل والخير والحرية ويريد للناس أن يعيشـــوا كما يريد الخالق ســـبحانه أمما وشـــعوبا وقبائل متنوعة مختلفة المشـــارب والأفكار لكي يتعارفوا ويتعاونوا لبناء حضـــارة الإنســـان على الأرض، ولكن أتباع الشـــيطان لا يســـمحون.. قال تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم إن الله عليم خبير﴾[٣].

---

[٣] سورة الحجرات/ ١٣.

ترى ما هي أهداف الحملة الأمريكية الحقيقية على العراق وما هي الدوافع الرئيسـيـة لغزوه؟ هل هي لاحتلاله والسيطرة على ثرواته وفي مقـدمتهـا النفط والزئبق الأحمر واليورانيوم والكبريـت والفوسـفات وغيرها من المعادن الثمينة؟ ومن المعلوم أن العراق يحتوي على ثـاني أكبر مخزون نفطي في العـالم،كمـا إن النفط العراقي يعد من أجود أنواع النفط في العالم أيضاً.

أم إن الهـدف الأسـاسـي لاحتلال العراق هو توفير الضـمان الستراتيجي للأمن القومي الإسرائيلي وتوفير الجو المناسب لإحداث تغييرات أسـاسـية في سياسة التطبيع والسلام العربي الإسرائيلي بالآلية التي يريد الأمريكان والصـهاينة فرضـها على العرب في المرحلة القادمة، تمهيداً لتوفير الاسـتقرار السـياسـي لإسرائيل وتفعيل السوق الشرق أوسطية بقيادة إسرائيلية وإشراف أمريكي.

أم إن الهدف السـتراتيجي الخفي والأكثر أهمية هو تطويق القطب الأوربي الموحد وربما روسـيا بالذات التي خسرت الحرب الباردة بعد تفتيت الإتحاد السـوفييتي وحلف وارشو في مطلع التسعينات، وإن حرب العراق مـا هي إلا مرحلـة جديدة ومتطورة من مراحل الحرب البـاردة التي لم تنتهِ بعد، من وجهة النظر الأمريكية، ومن ثم القضـاء على الترسانة الصاروخية النووية والستراتيجية التي تهدد أمريكا، أمريكا التي لم تعد تكتفي بموقع الصـدارة بين الدول

العظمى بل أخذت تستشرف دور الانفراد بالقرار الدولي لقيادة العالم والسيطرة الكاملة على مقدراته من خلال مفاهيم العولمة والنظام الدولي الجديد، بعد أن تمكنت من فتح بوابة الأمركة وتفتيت الأمم المتحدة وإلغاء دورها وفرض اللا شرعية التي ستكون حتماً من التداعيات المهمة والسريعة لحرب العراق واحتلاله، فالعراق وفق هذا المفهوم ليس هدفاً بحد ذاته، شأن أفغانستان وكوسوفو، وإنما وسيلة سياسية وعسكرية لإحاطة روسيا وأوربا بحزام أمني خطير يتشكل من أفغانستان والعراق وتركيا وكوسوفو وإسرائيل. فبمجرد أقامة حلف أمريكي لهذه الدول حول روسيا وأوربا فضلا عن دور النفط والتحكم الكلي بالاقتصاد العالمي ستكون أوربا -وروسيا بالذات- قد وقعت في الفخ، وسوف لن تقوم لأوربا الموحدة قائمة بعد تنفيذ هذه الستراتيجية... وقد تكون هناك أهداف أخرى عديدة، ولكننا نؤمن بأن مكر الشر والشيطان كان ضعيفاً، وسيكون الله سبحانه وسننه وقوانينه التي تعمل في بناء وهدم الدول والحضارات وفق قانون الأسباب الإلهي، بالمرصاد لهذا الشر المستطير. وقد أدرك العالم بعد الحرب أن أمريكا ستحاول ممارسة منطق الثور الأبيض وسياسة القضم في القضاء على خصومها ومعارضيها في العالم الواحد تلو الآخر.

إن الإعلام الأمريكي الذي اشتهر خلال هذه الحرب بالكذب والخداع والتزييف وقلب الحقائق سيحاول بكل ما أوتي من قوة وجبروت أن

يشـــوه كل الحقائق التي يمكن أن تكشـــف نقاط ضـــعف السياسة الأمريكية المتغطرسة والمستبدة، ويشكل الصورة الإعلامية المزيفة المتكـــاملـــة والتي يريد تســـويقها للعالم، وإن أهم الحقائق التي ســـيحاول طمســـها ومســـخها في هذه الحرب هي حقيقة الصمود البطولي لشـــعب العراق وتحديه لعقلية الغزو والاستعمار والاحتلال والإنفراد والهيمنة على العالم، ذلك الصـــمود الذي شـــارك فيه كل العراقيين بمختلف مذاهبهم ومشـــاربهم، والذي صـــمد أكثر من عشـــرين يومـــاً أمام أعتى قوتين عدوانيتين جاءتا لغزو العراق واحتلاله متذرعة بـــحجج مكررة وواضحة الكذب والبطلان، وهم قد بيتوا النية على الاحتلال والاستعمار الطويل الأمد، ومن الحقائق التي أظهرت كذب هذه الحملة الاستعمارية وكذب قادتها ومخططيها، أنهم لم يعثروا على أســـلحة تدمير شـــامل في العراق كما صـــرح الأمريكان بذلك قبل أيام، ولم يقوموا بتحرير الشـــعب بل استبدلوا الفوضى والاضطراب والانفلات الأمني بالنظام الفردي الذي دعموه أكثر من عشـــرين سنة ثم أغروه بغزو الكويت وغدروا به وجعلوه بين مطرقة الحرب وسندان الحصار، وهم قد سمحوا وشجعوا بعد إســـقاط النظام على أعمال السلب والنهب والحرق والتدمير المنظم لكل تراث العراق وحضـــارته وممتلكاته ووثائقه، ثم هم يصرحون الآن- ولم تنتهِ الحرب بعد رسمياً- دون خوف أو خجل عن نيتهم في بنـــاء أربع قواعـــد عســـكرية أمريكية في العراق، واحدة في

الناصرية أو الشعيبة جنوب العراق وواحدة في بغداد قرب المطار وثالثة في الحبانية غرب البلاد ورابعة في كردســـتان في شـــمال العراق كما قام الرئيس الأمريكي بوش بتعيين خمســـة مســـؤولين أمريكان لإدارة الحكم المباشـــر للعراق وهم الجنرال المتقاعد جي كارنر/ مدير مكتب الإعمار والمســـاعدات الإنسانية، وزلماي خليل زادة/ مســـتشـــاراً ومســـؤولاً عن الانتخابات في العراق، وبربارا/ مســـؤولة بغداد ووســـط العراق، وبيرنر/ الحاكم المدني وأخيراً الجنرال تومي فرانس/ الحاكم العسكري للعراق. وهم يراوغون في وعودهم وعهودهم مع فئات الشـــعب والكتل والأحزاب التي قاموا بجلب بعضـــها معهم وأوعزوا إلى آخرين بتشـــكيل هذه المنظمات والأحزاب، أما الفئات والأحزاب التي تمثل الشعب فهي الآن أضعف من أن تتمكن من الدفاع عن نفسها فضلاً عن تشكيل حكومة وحكم البلد. إن الإعلام الأمريكي الموجه ضد هذا الشعب الصابر لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا ويحاول أن يعيد تشكيلها من جديد وفق النظرة المتحيزة والمخادعة لكي يعيد تشـــكيل العقول والنفوس بالطريقة التي تخـــدم مخططه ومصـــالحه في العراق والمنطقة ولكي يبني ســـتراتيجية الأمن الإســـرائيلي الأبدي الجديدة. ومن الصـــغائر الإعلامية التي لم يهملها هذا الإعلام الموجه أنه أخذ يشكك في كل قصـــص البطولة والصمود والتحدي لهذا الشعب المؤمن العريق، فحتى الفلاح العراقي الذي أســـقط طائرة الأباشي بسلاحه الخفيف

اســـتكثروها عليه وعلى الشـــعب، فقالوا إنها كذبة أملاها أعوان صـــدام على هذا الفلاح المسكين ثم وعدوه بمكافأة ولم يصرفوها له. وقالوا أيضاً إن الذي ظهر في أحياء بغداد يوم الأحد ٦/ ٤ إنما هو شـــبيه صدام وليس صدام نفسه، وإن قتلاهم كانوا فقط ١٢٦ جنـــديـــاً وليس آلاف الجنود ... وغيرهـــا من الأكاذيب والخداع الإعلامي الذي درجوا عليه وعلى تسويقه إلى شعوبهم وإلى الرأي العام العالمي.

لقـــد أعلن بوش يوم الخميس ٥/١ ومن على حـــاملـــة الطائرات الأمريكية(أبراهام لنكولن) في ولاية كاليفورنيا عن انتهاء العمليات الحربية الرئيســـية لقوات التحالف في العراق، بعد تحقيق الأهداف المحددة لها، ولكنه عزف عن اتخاذ قرار بوقف الحرب في العراق كما كان متوقعا وذلك لأسباب سياسية ولكي لا تتحمل أمريكا تبعات قانونية وســـياســـية دولية حســـب اتفاقيات جنيف حول الحروب وشروط إنهائها لعام ١٩٤٩ وعام ١٩٧٧ م ،وكذلك لتدعيم موقفه في الانتخـــابـــات الأمريكيـــة القادمة. وقد اســـتمرت هذه الحرب اللاشـــراعية ٤٣ يوماً، وقد فشـــل قادتها ومخططوها في تحقيق هـــدفهم في الحرب الخاطفة والصـــدمة والترويع لاحتلال العراق وإنهاء الحرب خلال أســـبوع، فاضطروا إلى استخدام أساليب غير مشـــروعة لغدر العراق وطعنه من الخلف واســـتباحه ســـيادته وأراضيه مما أدى إلى سقوط أكثر من مائة ألف شهيد من المدنيين

والعســكريين، كان نصفهم قد أستشهد بأسلحة الغدر المحرمة ذات التدمير الشــامل، كما جرح في هذه الحرب أكثر من خمسين ألف عراقي، مع عشــرين ألف أسير. كان منهم عشرة ألاف أسير من المدنيين من سكان المدن والعشائر العراقية الذين قاوموا الاحتلال وتصدوا للغزو والعدوان بكل بسالة. أما قوات الاحتلال التي حاولت أن تخــدع الرأي العام العالمي والأمريكي بشــكل خاص وجعلت خســائرها لا تتعدى ١٥٠ قتيلاً و٣٠٠ جريح، فإن الحقيقة التي أكدها شــهود العيان والمحللون أن قتلاهم قد جاوزوا عشرين ألفاً من المرتزقة وقوات المارينــــز والجيش الأمريكي، وأكثر من ثلاثين ألف جريح امتلأت بهم مســتشفيات ألمانيا وإنكلترا وأسبانيا وأســتراليــا وأمريكــا وبعض الدول الأخرى الحليفة لهم، ومئات الطائرات السمتية والدبابات والناقلات والعدد والآليات التي جاؤوا بها إلى الخليج لتدمير هذا البلد الآمن، وقد القوا على العراق أكثر من ثلثي احتياطي الصواريخ الستراتيجي الأمريكي وآلاف الأطنان من القذائف والمواد المتفجرة والأســلحة التدميرية الجديدة التي جاؤوا بها ليجربوها على شعب العراق، وما خفي كان أعظم. ورغم الاســتبداد الإعلامي ومنع الأعلام المحايد وتحجيم حركته، إلا أن الشــرفاء في العالم من الصحفيين والإعلاميين والكتاب قد كشفوا الكثير من الحقائق، والمســتقبل القريب والبعيد كفيل بكشــف هذا الزيف الأمريكي الصــهيوني ومحــاولة ســرقة تحدي العراقيين

البطولي وصـــمودهم وتضحياتهم السخية التي جادوا بها من أجل الدفاع عن وطنهم. إن الرئيس الأمريكي بوش الذي تصور أن هذه الحرب ستكون نزهة وحرباً خاطفة سيجد أنها ليست سوى مستنقع كبير تورط فيه هو وأعوانه، وأنه سوف لا يجني الثمار التي خطط لها ســواء على أرض العراق أو في الســاحة السياسية الدولية، وسيكون تجاوزه على الشرعية الدولية أمر مشين في تاريخ الأمة الأمريكية المتحضــرة، وســيلعنه الله والتاريخ والشعب الأمريكي والعالم بعد حين من الدهر، حينما يكشـــف العالم أبعاد هذا التآمر والظلم الذي لحق بالعراق والعالم. أن المبدأ البراكماتي الذي يؤمن به بوش وحزبه ســـينقلب عليه وعلى شـــعبه، حين تدور الدوائر وتضـــعف أمريكا وتســـقط هيبتها وتتمزق إلى دويلات وولايات متحاربة متنافرة بدافع من التداعي الســياســي والاقتصادي الذي ستولده سياسة اللاشرعية والقوة البراكماتية، وحينها سيعلم بوش والصـــهاينة والمتصـــهينين من أعوانه أن القوة تكمن في الحق والمبدأ الصــحيح وليس العكس، كما يؤكد المنهج الصــهيوني في أدبياته في أن الحق يكمن في القوة والقوة تكمن في الذهب بنوعيه الأصـــفر والأســـود (النفط) وهو الذي دفعهم وجاء بهم إلى هذا المســتنقع والمنزلق الذي أســقط مفهوم الشرعية الدولية وجعل العالم في مطلع القرن الحادي والعشــرين ما هو إلا شــريعة غاب يتقـــاتـــل عليـــه الأقوياء والطواغيت من عباد المال والشـــهوات

والشـــيطان، وســـنرى غداً مدى صـــدق تلك التوقعات والتداعيات السياسية ومدى انطباق وقوعها بعد هذه الحرب الظالمة.

قال تعالى:

﴿فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾[٤].

وفي ختام هذا البحث والجهد الميداني بين شهود العيان والمتابعين وفي أحياء بغداد وشـــوارعها ومؤسساتها التي شهدت هذه الحرب العاصفة، والتي ستشهد يوم القيامة على أفعال المعتدين وتستغيث من جرائم المحتلين وعـــدوانهم على الأنفس والأموال والممتلكات، يشاركهم فيها الجواسيس والمتخاذلون والعملاء فضلاً عن السرّاق والمخربين من عصـــابات السلب والنهب الذين طوعت لهم أنفسهم اغتيال البلد ونهبه وتدمير حضـــارته.. نسأله تعالى أن يجعل هذا الجهد خالصـــاً لوجهه الكريم، خالياً من أي شـــائبة أو عرض من أعراض الـــدنيـــا، وأن يطرح فيه الخير والبركة لبث روح التحدي والوعي والثقـــة بقدرة هذا الشـــعب على الثبات والدفاع عن بلده وحقه في وجه الطامعين الأشرار، وأن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه نعم المولى ونعم النصير..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

[٤] سورة الرعد/ ١٧.

تم الانتهاء من الكتاب في

١٢ ربيع الأول ١٤٢٤هـ الموافق ١٣/ ٥/ ٢٠٠٣م.

الفهرست

الموضوع	الصفحة

المؤلف في سطور

ولد سنة ١٩٥٤م من أسرة حسنية كانت تقطن محلة باب الشيخ في بغداد..

يعود لقب العائلة (المدرس) إلى جده السيد عبد الفتاح المدرس الذي كان يدرس الفقه الحنفي في الحضرة القادرية في منتصف القرن التاسع عشر.

أكمل دراسته الإعدادية في مدينة بعقوبة سنة ١٩٧٢، ودراسته الجامعية في كلية الهندسة/قسم الكهرباء في جامعة بغداد سنة ١٩٧٦، وعمل مهندساً ثم مديراً لدائرة الصيانة والخدمات في إحدى منشآت وزارة الصناعة والمعادن حتى سنة ١٩٩٢م، ثم أحيل على التقاعد في تلك السنة..

تفرغ للبحوث والدراسات التاريخية والقرآنية لمدة ١٥ سنة، كتب عشرات المقالات التراثية والإسلامية في مجال الوحدة والتقريب بين المذاهب الإسلامية في الصحف والمجلات العراقية منها مجلة المفكر الإسلامي ومجلة الكوثر وجريدة الرأي وجريدة الفرات، وطبع له أكثر من أربعين مؤلفاً في بغداد وعمان والدوحة، أهمها:

١- الظاهرة القرآنية والعقل/ ط. بغداد ١٩٨٦م.

٢- النبوءة والاعجاز في القرآن والسنة/ ط. بغداد ١٩٨٨م.

٣- النسب والمصاهرة بين أهل البيت والصحابة/ ط. بغداد والدوحة وعمان والقاهرة ١٩٩٨ – ٢٠٠٥م.

٤- الأمة الوسط/ ط. بغداد–دار الكتب العلمية، ط.عمان–دار عمار ١٩٩٩.

٥- المؤامرة الكبرى في صدر الإسلام / ط. بغداد–دار الأنبار ١٩٩٨م.

٦- الدر المنثور من تراث أهل البيت والصحابة/ ط. بغداد وعمان ١٩٩٩م.

٧- مؤتمر النجف.. رؤية نقدية قرآنية معاصرة / ط. بغداد، ط. عمان ٢٠٠١.

٨- عمر والحسين وجهان لمنهج إسلامي أصيل/ ط. بغداد وعمان ٢٠٠١م.

٩- الإعجاز العلمي في القرآن والسنة/ ط. بغداد – مكتبة الرقيم ٢٠٠١م.

العضوية في النقابات والجمعيات:

1. **عضو نقابة المهندسين العراقية رقم ١٢٥٣٥ سنة ١٩٧٦.**
2. **عضو اتحاد المؤرخين العرب منذ سنة ١٩٩٨م.**
3. **عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق منذ سنة ١٩٩٩م.**
4. **عضو جمعية الناشرين العراقيين منذ سنة ٢٠٠١م.**
5. **عضو جمعية الآداب الإسلامية/ بغداد.**
6. **عضو جمعية التربية الإسلامية/ بغداد.**
7. **عضو جماعة الوحدة والتقريب بين المذاهب الإسلامية/ العراق.**
8. **عضو جماعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة/ معهد الشرق–بغداد.**
9. **عضو جماعة دعاة السلام لإنقاذ العراق– بغداد.**

ظهر الغلاف

●الغزو الأمريكي والحرب النفسية الإعلامية ومحاولات شل الإعلام المحايد.

●فشل نظرية الحرب الخاطفة وخطة الصدمة والترويع.

●الإعلام الأمريكي يحاول النيل من الصمود البطولي العراقي.

●استخدام سلاح نووي تكتيكي في المطار وأسلحة دمار شامل وقنابل صوتية ومنفلقة وثقيلة على الأحياء السكنية في خطة الصدمة والترويع البديلة واحتلال بغداد.

●صدام يصرّح ليلة سقوطه في آخر كلمة له: أن الشعب قاتل وصبر ولكن حزبه لم يقاتل.

●السلب والنهب (والفرهود) من تدبير الغزاة وأذنابهم.

●كلمة للتاريخ ونصيحة للدول المحيطة بالعراق.

●مصير أصحاب الفيل ومغول بغداد في الماضي هو نفس مصير المحتلين اليوم.

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ١٧٠٠ لسنة ٢٠١١